آيثر مصطفى

رواية: هائم

الكاتب: آيثر مصطفى

تدقيق لغوي: يوسف صقر

إخراج فني: هند محمود كمال

@aythermostafa

حقوق الملكية الفكرية وحقوق الطبع كافة محفوظة للمؤلف،
ويمنع منعًا باتًا نسخ أو نقل أو طبع أي من النصوص الواردة في
هذا الكتاب من دون موافقته.

2023

إهداء

إلى صديقتي العزيزة "مارينا"..

شكرٌ كثيرٌ لا يكفي.

الفصل الأول

عام 2002..

ما هو تعريف الحياة وفقًا لك؟ أهي الحركة الأبدية أم أنها ولادة مخلوق جديد؟ أو ربما عقل الإنسان الذي يعمل كآلة؟ أأعطي لك مصطلحًا فلسفيًّا أم تعريفًا علميًّا مغلظًا؟ ما رأيك في لبس نظارة شفافة ذات إطار واسع يوسع العين أضعافًا، والبدء في الشرح على السبورة كمعلم وتلميذ؟ دعك من كل ذلك، في الحقيقة لا يوجد لدي تعريف سوى أنها دائرة نحن نلف بها، دائرة كبيرة يسير فيها الناس من جميع أنحاء العالم كالتائهين، ربما تتساءلون ماذا نفعل فيها وما هو مغزى أن نلف ونلف مثل الحمار أو مثل البهيمة في ساقية؟ بالتأكيد يتلخص الأمر في أننا نأكل ونشرب ونمارس الجنس ثم يلفوننا في قماشة بيضاء ويرمونا

تحت التراب مثل علب السردين، لا أريد فلسفة من فضلكم مثل أن الحياة إثبات لمعناك أو أن الحياة هي الوجود المطلق للكائنات إلخ إلخ...، كفوا عن الهرطقة أرجوكم، الحياة لعبة لا نفهمها وإن فهمناها لتمنينا أن نموت، الحيوانات تعيش في نعيم، أقسم لكم أنها تعيش في نعيم، حياة دون فهم، فما أعظمها تعاش مثل الغائبين والمختفين عن المشاق، أو كرجل يمشي في الشارع وتوقف قبل أن يهبط على رأسه لوح من الزجاج، هي نظرة متشائمة لكني أراها أكثر منطق من أغاني الأمل والتفاؤل التي تبث لحجب الواقع، الآن أنتم تفكرون لماذا أنا آخذ هذا التوجه السلبي؟ ولماذا أكون متنبهًا في هذه الدائرة السوداء؟ إن كنت في عمر العشرين فأنت مطالب بالصراع للبقاء تتنفس في هذه الحياة قد تنقطع أنفاسك وأنت تصارع، لكن لا عليك، المهم هو أنك قد حاولت، ستجد الجميع يتحدثون عن فوائد الحياة وكأنهم مندوبي مبيعات يعملون في شركة الحياة الأبدية ويُسوّقون لمنتجهم باهظ الثمن، لا تعلمون الآن من أنا ولماذا أتحدث بهذا التشاؤم؟ ستعلمون كل هذا في أحداث قصتي حاولوا الاستمتاع، لا أعلم كيف سيحدث هذا؟

أنا ناصر عمري سبعة عشر عامًا، الآن أقطن في مدينة أسوان نعم أسوان لماذا تنظرون إلي هكذا؟ هي بلدي التي ولدت بها وكبرت حتى ظهر بعض الشعر في ذقني، وتجاوزت المئة وسبعين سنتيمترًا، ربما تخيلتم

شكلي ورسمتم ملامح لوجهي، وفصلتم ثوبًا لجسدي بعد هذا الملخص، شكرًا يا حضرات وفرتم عليّ كتابة بعض الأسطر والخوض في تفاصيل لا أريد التكلم عنها، أسكن في قرية فقيرة وهذا بالطبع لحسن حظي، هذه القرية شديدة الفقر تقع بجانب النيل ويقطع عنها المياه ولا يجد المزارعون مياهًا أحيانًا لري أرضهم، ولهذا تحدث الخلافات مع العمدة المسؤول فتندلع المشاجرات والمظاهرات والاحتجاجات والوقفات، بنيت هذه القرية إبان بناء السد العالي؛ لتكون مشروعًا لاستعراض الحكومة التنمية العمرانية المرتبطة ببناء هذا الصرح؛ لكن صياح الديوك عالٍ كما تعلمون، أما عن بيتي الذي هو بيت أرضي ذو سقف خشبي يقطر منه المطر في الشتاء، يشبه البيوت البدائية لكن به كهرباء، قد بناه أبي بعد معاناة من جمع المال والصبر، معي أربعة هم: أبي الحاج أحمد الموظف الحكومي المتقاعد، وأمي ربة المنزل الحنونة، وأختي إسراء اسمها عروسة المولد، والرابعة أختي علياء، وهذه وقعت في فخ الجواز، أدرس الثانوية الصناعية كنت أتمنى أن أكمل تعليمي لكن الأمر خارج حدود جيوب أبي الذي ينفق علينا، كانت أمنياتي أن أصبح ضابط شرطة، كنت مولعًا من صغري بشراء مسدسات من البلاستك وأشتري لصديقي مروان أيضًا ونخلق صراعًا في البيت، أمثل أنا الشرطي وهو المجرم والعكس، يحدث ترتطم الرصاصات والتي هي خرز من البلاستيكيّ في سكان البيت ونضحك

ناسيين فعلتنا، لكن الأحلام الصغيرة قد تبقى صغيرة وتندثر كالألعاب النارية في السماء، هذه الدار كانت جميلة وأتلف جمالها بكر سني وفي غرفتي ألجأ وأتحصن بدفئه، سبرت مهنة النحت، تعلمت هذه الحرفة من أبي الأكثر مهارة ولديه تماثيل كبيرة من الخشب، كان أول ما رأيت من مجسماته تمثال خشبي لرأس امرأة حتى الصدر، كانت مصدرًا للمال فكان يبيع من هذه التماثيل الكثير أتذكر قوله لي أن هذه التماثيل لها زبائن يأتون من محافظات أخرى ليشتروها وبأي ثمن، لكن هذه الحرفة على ما أظن لا تلقَى رواجًا الآن، فنحن في الألفيات وتماثيل الصين غزت السوق، الأمر هواية منذ سن العاشرة وأجد نفسي في صنع تمثال أفضل من كوني لا شيء، تعالوا أعلمكم كيف تصنعون واحدة، أمسك قطعة من الحديد الحاد مثل السكين وفي اليد الأخرى أمسك قطعة من الخشب رويدًا رويدًا بمهل وفي ذهني تفاصيل التمثال، وبدقة أقشط الخشب ببطء، حتى يكون ملحوظ المعالم، الأمر صعب في البداية واحترسوا حتى لا تجرحوا أيديكم لكن ستتعلمون مع الوقت، ربما عليكم البحث عن شخص ذي مهارة أو كتاب.

وتحلو أوقاتي بالحديث مع أمي، هذه المرأة المكافحة التي أرضعتنا حتى تقشف ثديها، اسمها سنية على اسم جدتي، تمتلك ابتسامة كنجمات السينما أو ربما أجمل، محترفة في صنع الخبز بأنواعه المختلفة تجلس على كرسي مقابل لفرن من الطين، وضوء النار ينكب على وجها

الأسمر، وتصنع أرق وأجود أنواع المخبوزات، أفضل حتى من خبز فرنسا باهظ الثمن، تغرقه في السمن البلدي ليعطي طعمًا لا مثيل له، أخطف منها بعض الأرغفة وهي ساخنة كالجمر وآكلها رغم حرارتها كأنني مخلوق من نار، تبتسم في النهاية غير ملتفتة إلى أرغفتها الناقصة، تعاني من الضغط المرتفع الذي يفقدها طاقتها؛ لذلك تعامَل بحذر من الجميع، ليس لنا سوى هذه البركة، وبالنسبة لي أرى أمي أحن نساء العالم وأكثرهن تواضعًا، إن تفحصتم خيالكم لوجدتموها ملكة الكوكب متربعة على عرش مطرز بالألماس والمعادن الثمينة.

كان أبي يجلس بمفرده يحتسي الشاي وفي يده السيجارة، هذا الرجل الناصري الذي يعلق صورة للرئيس السابق جمال عبد الناصر في غرفته من فرط حبه الغريب ناداني فخطوت إليه وأعلم أن هذه الجلسة ستكون مليئة بالنصائح والحكم، طلب مني أن أشاهد التلفاز معه كان مدمنًا لنشرات الأخبار، فجلست أتابع هذا الضنك، كانت نشرة عن الأحداث في قطاع غزة، قتلى وجرحى وشهداء، تتكرر هذه الكلمات على لسان المذيع الذي يقرؤها وهو يبتسم غير معني بالأمر، وتنتقل لي لأصاب بالحزن وأحاول الهرب كي لا ألقي بنفسي من الشباك متأثرًا، لاحظ أبي وقوفي قائلًا: اجلس، فامتثلت لطلبه لا أعلم ما سر مطالبته بأن أجلس بجانبه أشاهد أشلاء الناس تتطاير، حاولت ألا أنظر إلى التلفاز والنظر في جهة أخرى لكني لم أستطع؛ المشاهد ملفتة.

– انظر ماذا يفعل اليهود الكلاب؟ إنهم يقتلون الأطفال وينتهكون حرمة البيوت، إن كان الزعيم عبد الناصر رحمه الله على قيد الحياة لكان احتل هذا البلد وغلبهم ولطخ رؤوسهم في الوحل.

– إذًا لماذا لم يفعل ذلك وهو حي يا أبي؟ هذا رجل شعارات انقلب وجهه كالوحش ينقصه لهيب يخرج من فمه كالتنانين وقذفني بكوب الشاي الفارغ فتناثر فتات الزجاج مرتميا، حمدًا لله أني تفاديتها، كان يصرخ قائلًا اصمت هذا قائد العرب، لقد تيقنت أنه مجنون به كان سيقتلني، ربما يعتقد أن جمال عبد الناصر إله أو رسول أتى برسالة دين جديد، علمتم الآن لماذا اسمي ناصر! نعم؛ بسبب ولع أبي به، الأمر سخيف أليس كذلك؟

دخلت أختي إسراء منتفضة، أبي هذا الكوب الرابع الذي تكسره هذا الأسبوع لم يعد لدينا شيء نشرب فيه.

– افتحي كتب الاشتراكية وتعلمي كيف تشترين الأشياء من الرأسماليين المستبدين من لا شيء.

أردف بصخب وهو يومئ بإصبعه تجاهي:

– اذهب أيها الملعون من أمامي، اذهب وإلا...

قبل أن يكمل غادرت ضاحكًا حتى تألمت أمعائي، ودخلت لغرفتي، فتحت أوراقًا دراسية لمادة الفيزياء كي أذاكر لكن هناك شيطان يوسوس لي، ربما أنها مادة الشياطين كما يقولون كونها تصنع وسواسًا عقليًّا، شغلت القرآن ليخاف الشيطان فيهرب أو يحترق لكن لم يحدث شيء، يبدو أنه ضميري الملعون يحتاج لصاعقة كهربائية ليعاد تشغيله، أنصتُّ لضميري الميت وقررت لعب الكرة مع بعض الأصدقاء، ارتديت شورت وقميصًا رياضيًّا وحذاءً مناسبًا للجري، اشتريتهم بعد أن ادخرت مصروفي لسنة، نعم ورحمة جدتي كما أقول، كانت هناك أرض واسعة نلعب فيها كل مرة، أرض رملية بها بعض الحجارة الصغيرة، ذهبت لمروان صديقي الذي ارتدى شورت قصيرًا وشبشبًا وجاء معي للبحث عن تكملة لفريق للعب، وبالفعل جمعنا ستة أفراد وجهز كل منا حاله ولعبنا بكرة ناقصة الهواء لكنها تفي الغرض، ثقيلة على الأرض ولا تصل على بعد مترين إن ركلتها بقوة كالحجارة، وتعاني بمشقة باللعب بها، حدث تداخل مع لاعب في الفريق المنافس، الرجل العاقل نسي أننا نلعب الكرة وتحول لمصارع وحملني بحركة لولبية لا أعلم كيف لأقع على كتفي الضعيف على الصخور الصغيرة المدببة، وأنا جسدي نحيل وهو مثل الدبابة الروسية، ظهر الألم تدريجيًّا لم أستطع تحريكه، ومددت جسدي على الرمال والتفوا حولي يتفرجون كأنني حيوان في قفص، فأشبعته بالشتائم والسباب رغم اعتذاره.

فأسندني مروان للبيت ومعه المصارع الذي شوهني بعد ما اشترى لي عصيرًا من القصب، لماذا كان علي تقمص دور رونالدينهو؟ وجدت إسراء تبكي وهي تشاهد التلفاز الذي هو بعرض خمسة عشر سم فسألتها ما بك؟ قالت لي أنها تأثرت بالمسلسل كثيرًا، كان مسلسلًا رومانسيًّا وهي لا تستطيع إيقاف دموعها أمام مشهد للخيانة، فقلت لنفسي ما هذه التفاهة تركتها غارقة في دموعها ودخلت أتوسد لأنام متعبًا، وغرقت في سبات عميق انتقلت إلى الحلم في ثوانٍ، كان الحلم غريبًا أقف في الشارع ليلًا تحت عمود من النور في صمت تام، في ساعة متأخرة ووالدي يناديني من على مسافة بعيدة وهو يبتعد لكن وجه لي ناصر بوجه عابث مفزوع:

– أنا هنا يا أبي.

وأحاول الاقتراب منه لكن حركتي ثقيلة وأنا أرفع يدي لأؤكد أنني أراه وأسمعه وأناديه:

– أنا أمامك يا أبي.

استيقظت أشهق مفزوعًا، رددت أعوذ بالله الشيطان الرجيم، لتدخل أمي الغرفة قائلة:

– ما بك يا ولدي؟ وفي يديها كوب من الماء.

– كابوس.

– كل هذا لأنك لا تصلي، حافظ على صلاتك، وسيمنع عنك الله كل مكره.

– أنا أول مرة أحلم بكابوس أنت تعلمين ابنك جيدًا.

تمدد سوف أرقيك، وضعت يديها على رأسي وبدأت تتمتم بآيات القرآن.

سمعت أذان الفجر فرحت وتوضأت وفرشت سجادة الصلاة وصليت بخشوع، دعوت الله وأنا ساجد وآمل الاستجابة، كان هذا أول كابوس أحلم به في حياتي بداية مبشرة، ثم أكملت نومي وصحوت على يد صغيرة بحجم ثمرة المشمش تتحسس وجهي كان ابن أختي علياء اسمه عبد الله فتى الخامسة يشبه أمه يأخذ من أبيه فقط شكل الأنف، حجمه بحجم البطريق، خشن الشعر وعيناه واسعتان وجذابتان، حملته على كتفي قائلًا:

– أين أمك؟

ليرد وهو يضحك في الخارج، لأخرج وأجد علياء أختي جالسة في الصالة، من المربك قليلًا تواجدها كونها تعيش في الإسكندرية مع زوجها، قطع هذه المسافة لتحضر معنا في مفاجأة، ألقيت السلام عليها

لتقبلني من خدي بشدة يبدو أنها غير مقتنعة أني كبرت ولست أحد أطفالها، دخلت الحمام لأستحم ليس حمام بيتنا بالكبير فهو أصغر حمام قد ترونه، به خرطوم مياه بديل للشطاف، والجدران طلاؤها مقشر، وتخرج من بلوعة به حشرات تهجم علينا كالدخلاء، رجعت لأجدهم يتكلمون، كانت توجد على الطاولة المقابلة لهم أكواب من الشاي، كانوا يتكلمون عن جنازة عمدة القرية ومن سيعين خليفة له، استغربت من اهتمامهم ورميت أذني لحديثهم بتطفل علمت أن العمدة مات مقتولًا، لأنتفض وأقول في نفسي عمدة القرية الرجل الطيب التقي، الذي لا يفوت فرضًا يقتل؟ وبدأت أتساءل ترى من قتله، سألت أبي عن الأمر ليقول أنهم وجدوه غارقًا في دمائه مستلقيًا في غرفته مذبوحًا والشرطة تبحث عن الفاعل، فسألته من قتله؟ من الممكن فعل ذلك.

قال أن العمدة رجل طيب وليس له أعداء ربما أحد من أسرته، ميراث وشيء من هذا القبيل، ورجحت أنا هذا الخيار؛ لأن المنزل الذي يعيش فيه العمدة مؤمن وبه حراسة وكلاب على الباب تنبح إن أحست أن هناك ذبابة دخلت.

أبي، كان هذا الرجل شريفًا بحق، رصف الشوارع وكان يساعد الناس.

قالت إسراء أيضًا:

– هو من بنى مدرسة البنات ألا تتذكر؟

تابعت قائلًا:

– يا جماعة هذا عادي فهذه هي مهمته من الأساس، لماذا تتكلمون عن ما فعله وكأنه فعل شيئًا خارقًا؟ ثم ما معنى رصف الشوارع؟ هل من المعتاد أن تكون هناك شوارع من الرمل؟

تابعت علياء:

– لا، نحن فقط نقول ما الذي فعله، غير أنه كان مقربًا من الجميع، نحن نذكر محاسن موتانا كما أمرنا الله.

هتف الكل بلسان واحد: ونعم بالله.

فتحت الشباك لأجد عربة شرطة حولها رجال وعلى ما يبدو يحققون.

– أبي، لماذا عربة الشرطة هنا؟ أليس بيت العمدة يبعد الكثير عنا؟

– نعم، ولكن العمدة الله يرحمه كان لديه نفوذ كبير، مقتله أحدث ضجة في المديرية كلها.

– إذًا سيمرون علينا.

– لا أظن ذلك، ادخل وأكمل مذاكرتك أنت.

لم أفكر في الموضوع كثيرًا ورحت ألعب مع عبد الله الذي كان ممسكًا بلعبة اسمها (نحلة) تلف عند فرك رأسها لتدور، جلسنا نلعب مع بعضنا، اقترب مني وهو يرتعش قليلًا وهو يقول: أريد أن أخبرك بسر. فقلت له: قل ما الأمر؟

– إن أبي يضربنا بشدة.

قلت منتفضًا محدقًا به:

– متى حدث ذلك؟

– البارحة ضربني بالحزام ورحل.

– وهل كان يفعل ذلك من قبل؟

– نعم.

وأشار بأصابعه الصغيرة الثلاثة.

أرحت كف يدي على كتفه قائلًا:

– اسمع أنت رجل الآن أعدك سينتهي كل هذا، اتفقنا؟ ولِم أنت خائف؟ كل ذلك سينتهي حسنًا؟

هز رأسه راضيًا.

فحضنته وأنا أربت على ظهره لأطمئنه، لم أعرف ماذا أفعل، هل أخبر أبي وأمي؟ وتساءلت لماذا علياء صامتة؟ خرجت لأجدها جالسة بمفردها وكانت فرصة فسألتها وأنا أتطلع لها بجدية:

– هل أنت بخير؟ كان هذا السؤال لأظهر شيئًا ربما لا توده، تغيرت ملامحها واهتزت بارتباك لكنها انضبطت:

– نعم أنا بخير، ما سر هذا السؤال؟

كنت أريد أن أتكلم معها، لكني لم أكترث عندما وجدتها تهرب وغيرت الحديث، ما كانت لي مساع في الأمر سوى أنني قلت لها إني سآتي لزيارتها، لم أخبر حتى أبي أو أمي، وقررت السفر لأمكث عندها، وإن كان لي رأي نافذ لأحضرت عصا وأوسعته ضربًا بدلًا من التحقيق والتمحيص، لم أنسَ نظرات عبد الله التي تحمل الأسى، لم أكذب إحساس هذا الطفل، وبعد يومين ذهبت إلى المحافظة التي تقطن بها وفي يدي حقيبة بها ملابسي، وقررت البقاء معها يومين، قلت لها سأقضي يومين لنزول البحر والتنزه كعادتنا، شقتها واسعة تطل على البحر مباشرة، ليس مستبعدًا السكن في تلك المنطقة وأنت تعمل في شركة بترول وتقبض راتبًا بالآلاف، أتحدث هنا عن زوجها الذي جاء في وقت متأخر من الليل سكران ليصافحني وهو يهتز مثل المطاط، ورائحة الكحول تفوح من فمه، تغافلت عن الأمر ونمت، وصحوت على صوت

شجار بينهما، كان شجارًا على إعداد الفطور، فما كان لهذا الأحمق إلا أن أمسك برأس أختي ودفعها إلى الحائط وهو غاضب، فعل ذلك وهرع هاربًا كالمجنون؛ فواسيتها ومسحت دموعها وقلت لها: تعالي ننزل لنتمشى قليلًا، وسرنا على الكورنيش نشم رائحة البحر في وقت العصر وعبد الله ابنها معنا، كان الهواء يغذي الروح والشمس صفراء كالوردة متزينة، كان الجو جميلًا ممتعًا، تكلمنا عن الأمر وعرفت أنه يعاملها هكذا منذ ستة أشهر وهي تكتم في نفسها حتى لا يخرب بيتها، الله يلعن هذا البيت يا شيخة، حيث بدأ بمعرفة أناس أسمتهم شياطين يلعبون القمار على المقاهي مدمنون للخمور، لم يرجع للبيت فاتصلنا به مرارًا في شركته لكنه غير موجود، دلتني على الأماكن التي من المرجح أن يجلس فيها، وبحثت هنا وهناك واصفًا شكله لكل من قابلته، أنقذ الله والديه بالموت قسمًا بشرفي، اختفى كالشبح لم يعد له أثر، جلست مع أختي اليومين وقررت الرجوع وناشدتها الرجوع معي لكنها رفضت بحماقة، وقلت لها إن حدث أمر مثل ذلك مجددًا فاطلبي الطلاق، وارجعي، ركبت القطار مبتعدًا عن البحر نحو القسوة تاركًا هم علياء خلفي، أنا صغير لم أتوقع رؤية أختي تضرب، كانا في البداية متصالحين مثل العصافير يتبادلان الهدايا ونظرات الإعجاب، لم أتصور أن يصل الوضع هكذا من فقر خبرتي بالبشر، ما زلت أسمع أن الزواج عفة وأنه تكملة لنصف الدين ويبدو أنه سبب لكفر الناس، وصلت لقريتي الفقيرة

بعد سبع ساعات مرت بجانب النيل على خط القطار القديم لأجد قوات الشرطة تملأ الشوارع؛ فسألت أحد الأشخاص الذي قال لي إن هناك عراك بين عائلتين ومات خمسة بطلقات نارية وجرح آخرون والأمن هنا للبحث عنهم، وقفت أشاهد ما يجري لأجد أناسًا مكتظون داخل عربة الشرطة، كان المشهد كمشهد سينمائي لم أرَ تجمعًا بهذا الكم من البشر في عربة ضيقة لا تتسع لأنفاسهم، وصلت للبيت وجدت أبي كما هو يتابع النشرة الإخبارية على التلفاز وأمي تطبخ وأختي تبكي بلا سبب، لم يتغير الوضع كثيرًا فجلست أتابع النحت دون راحة من السفر المنهك، سمعت صوت أبي يناديني يقول: تعال يا ناصر، فخطوت بين أبواب البيت الضيقة لأصل عنده وأجلس، قال لي أنه اشترى عربة خضروات متنقلة وسيضعها في السوق ويريدني أن أقف لأبيع، ففكرت في بالي وقلت أنه اختبار وتحدٍّ بالنسبة لي فدارت الاحتمالات في عقلي، ربما لم أستطع البيع للزبائن أو أن الشرطة ستعطيني مخالفة لا أستطيع سدادها ويأخذون العربة وأسجن، لكن أبي طمأنني وقال أن المساحة التي سأقف فيها آمنة وأنه اتفق مع بائعين ثقة سيساعدونني، سأبيع الخضروات للناس وأنا انطوائي لا أجد شيئًا في الحياة سوى صنع تماثيل ومنحوتات، عربة خضار يا لفرحتي، وافقت على الأمر وذهبت لأرى العربة، كانت بجانب الرصيف على جانبيها عربات متنقلة لبيع الخضار أيضًا والسوق نصف بائعيه يبيعون الفواكه والخضار فتساءلت عن

كم لدي من الفرص للبيع وسط هؤلاء الجحافل؟ المحلات تغطيها عربات البائعين، أناس غاضبون يمشون متطلعين إلى اللحوم والأسماك باشمئزاز، ونساء في عباءاتهن السوداء عند كل بائع بعضهن لديها طفل، والبعض لم يعلم شيئًا عن الرجال بعد، بائعون يصيحون لبضاعتهم والآخرون يدعون الله بصراخ، أرسل علينا عبيدك يا رب، تعالوا ما شاء الله وقولوا بالصلاة على النبي في إشارة لبضاعته، ورائحة الفاكهة الطازجة والخضراوات تمتزج لتكن رائحة السوق المعتادة، ونور الشمس يرتمي على السوق ويختفي في آخر الليل ومعه الباعة والمستهلكون، والطينة تكسو الأرض إثر انفجار ماسورة صرف صحي، العربة بها خيار وبطاطس وطماطم تفصلهم قطع من الخشب، وقفت لا أتكلم لساعة وناديت على الزبائن كما يفعل غيري لكني لم أستطع تقليدهم، كانوا مهرة في جذب المشترين، على يميني بائع يدعى أيمن رجل أربعيني بشوش الوجه يعيش في منطقة قريبة ويأتي هنا كل صباح يفرش بضاعته، قال لي إن الزبون يحتاج إلى أن تصنع له من الفسيخ شرابًا حلوًا فسألته:

– كيف؟

– عليك أن تشير إلى بضاعتك عندما يقف زبون أمامك وتعرض علية السعر بطريقة هادئة، لا تساوم الزبون على البضاعة؛ لأنك يا صغيري تبيع ببضع جنيهات ولست بائع أجهزة كهربائية.

فكرت في كلامه وقلت أن معه حق، لم أساوم الزبون على حبات الطماطم والبطاطس التي أبيعها إلا وإذا بعتها بالجرامات مثل الذهب، حل اليوم التالي ووقفت في عرضة للشمس الحارقة أصرخ مثل باقي البائعين بعد أن تدربت البارحة مع عم أيمن، جاءتني زبونة سيدة عجوز تحمل حقيبة يد مجعدة الجلد ظهرها منحنٍ قليلًا، على رأسها طرحة بيضاء يخرج منها شعرها الأبيض المخلوط بالأسود، طلبت 2 كيلو طماطم وأربعة كيلو من البطاطس فوزنت لها طلبها وأخرجت نقودها، قلت لها أن المبلغ ناقص؛ لأن ثمن الحاجة أحد عشر جنيهًا فارتفع صوتها الحاد قائلة:

– لماذا أنا أشتري هذه الحاجة كل أسبوع من أحمد الذي يقف في أول الشارع بثمانية جنيهات؟

لترتفع دقات قلبي بخوف وعقلي يقول لي (هل سترحل؟ ماذا أفعل الآن؟ لماذا تحدق بي هكذا يا ويلتي؟ لماذا قبلت بهذه المهمة؟) ليتدخل العم أيمن بتطفل كأنه هبط من السماء قائلًا:

– لا يا حاجّة هذا هو سعر السوق.

لتوجه كلامها هذه المرة لكن لعم أيمن بحدة مبحلقة:

– لا أريد شيئًا خذ حاجتك وألقت ما في الكيس على العربة وتناثرت حبات البطاطس على الأرض ورحلت تهمهم.

كان سيتسبب الموقف لي بأزمة قلبية لم أعلم ماذا أفعل وكيف سأتصرف؟ نصحني العم أيمن أنه يجب علي الثبات في تلك المواقف وألا أخفض السعر مهما حدث، وبعد عدة دقائق وقف أمامي رجل عشريني أسمر اللون لديه صلعة ويرتدي قميصًا به مربعات وحول خصره حزام جلد أسود، تكلم بانضباط كالأطباء قائلًا: بعد إذنك أريد أربعة كيلو من الخيار.

فعبأت له طلبه بسرعة وكأنني عسكري في الجيش وكأن هذا الرجل ضابط يأمرني، قلت له: الحساب عشرة جنيهات فأخرج خمسة عشر جنيهًا وأعطاني إياها؛ فأدخلت يدي في جيبي محاولًا أن أخرج الباقي فلم أجد سوى الهواء، فناديت عم أيمن هل معك فكة؟ فقال لا نحن ما زلنا في أول النهار، فبسط يده قائلًا:

– أبقِها معك.

وألقى السلام وابتعد، قد لاحظنا عم أيمن قائلًا بابتسامة، أترى هناك أناس لا تفرق معها هذه القروش؟ لم أتوقع أن الأمر بهذه الصعوبة، الناس حقًّا أنواع، كان اليوم حارًّا والسماء بلا سحاب فزاد سماري من أشعة الشمس الهاطلة على وجهي، بعت الكثير من الخضراوات وبقي القليل،

انسحبت الشمس، تبدلت مع الليل البارد، غطيت العربة ومشيت حتى ركبت سيارة أجرة، كان السائق يسير بسرعة هائلة حتى أن الركاب حذروه كي يتمهل ويدير باله للطريق، أكمل سيرة المجنون إلى أن وصلنا، كنت مرهقًا جدًّا ورجلي ثقيلة، لاحظت رجل بعربة يجرها حمار قلت له أن يوصلني للبيت فوافق بترحاب لم أستطع وصف سعادتي بهذه الموافقة كأنها موفقة فتاة أحبها على الزواج، ركبت بجانبه وهو يضرب الحمار بكرباج حتى يسرع فقلت له: اتركه لعل ساقه تؤلمه هو الآخر.

– البارحة أمسكت الشرطة ابن أخي.

فقلت له بإنهاك أفتح عيني بصعوبة: لماذا؟

– بسبب العراك الذي حدث في القرية الحكومة تأخذ عاطلًا على باطل.

– وهل ابن أخيك فعل شيئًا؟ هل كان في العراك من الأساس؟

– تحشرج الرجل، لا لم يكن في العراك، أنس طيب جدًّا.

– إن شاء الله سيخرج ويكون بخير.

– هل هناك علاقة بالشجار ومقتل العمدة؟

– لا ليس له شأن، لقد أُخذ تحري من قبل الشرطة، ليس له يد في القضية من قريب أو من بعيد، لقد أخذته الشرطة عندما كان جالسًا في

المقهى مع صديقه، الناس هنا أغبياء يتعاركون لأتفه الأسباب، نفخم في أنفسنا نحن الصعايدة ونحن كبار البلد ولا يستطيع أحد مجابهتنا ونقتل بعض بخسة بلا رحمة، كل هذا العراك؛ بسبب أسرتين تعيشان من أكثر من مئة وعشرين عامًا، واحدة مسلمة اسمها عيلة منصور وهي عائلة كبيرة، وعيلة تانية عائلة بسالي، مسيحيون ما بينهما عشرة وجيرة وود وحب، عائلة منصور واحد منهم ضرب في دماغه، إنه لا يخرج ست أو شابة من عائلة بسالي إلا وقد غطت رأسها بخمار، ووقف أمام البيت وفي يده سلاح يصرخ لا أريد أن أرى امرأة بلا حشمة، إن كان لا يوجد عندكم رجل فنحن رجال اجتمعت حوله الناس لتأخذ منه السلاح وليهدأ لكن بلا نتيجة، ومن هنا انطلقت الشرارة.

خرج أحد أفراد عائلة "بسالي".

من الرجال وأفرغ في جسده خزينة السلاح بأكملها فأرداه قتيلًا.

هذا ليس سببًا تافهًا للعراك، هذا الرجل يعاني من تشوش في الجزء المسؤول عن التفكير في مخه، كيف لسيدة مسيحية أن ترتدي خمارًا أو حجابًا وهو ليس في دينها ثم يرفع السلاح يهددهم أنا أرفع القبعة للذي قتله؟

– بالعقل يا ابني إن رفع كل واحد للآخر سلاحًا في العراك فلن يبقى فينا نفر.

– والله يا عم الحج أنت تقول حِكمًا، الله يخرج ابن أخيك على خير.

– يا رب يا بني يا رب.

وصلنا إلى البيت ووقف الحمار مقابلًا للباب مباشرة فنزلت من العربة شاكرًا الرجل الذي يغول في بشرته عبق الدهر، أزحت الباب الخشبي والتراب يغطيني، لاحظتني أمي وانفجرت من الضحك وكأنها رأت بهلوانًا، ونادت أبي وأختي اللذين ظهرا كالأشباح وعلت ضحكاتهم المستفزة وأنا واقف لم أتحرك من مكاني وكأني أقول لهم شاهدوني، فهرعت للحمام أستحم كان التراب ينزل من على جسدي الأسمر بني اللون يتزحلق مع الماء كأنني أذوب، جفّ الماء بعد استحمامي من الحرارة وارتديت تيشرت عليه عبارة باللغة الإنجليزية لم أدقق بها منذ أن اشتريته، استلقيت على مضجعي وعقلي يقرأ أحداثًا ومشاهد عن الواقع والماضي والحاضر والمستقبل، وأتخيل نفسي ثريًّا أعيش في قصر ولدي سيارة وفي مضجعي فتاة أحلامي، النوم لم يحضر فقمت أعد الشاي في منتصف الليل وكل من في البيت نائم والأنوار مطفأة، لا أصوات غير صوت صرصور الحقل، ارتشفت الشاي الأحمر ورأسي ثقيل، النوم يأمل لكن التفكير يدشمل هذا الأمل، خرجت من البيت وفي يدي كوب أتمشى بجانب النيل الأزرق، الطيور فوق الشجر وضوء القمر يتخلل البيوت، الظلام منتشر كالوباء والكلاب تنبح وتجري خلف بعضها،

سيارة تسير أرى ضوءها من بعيد، وقوارب بيضاء تثير تعكس ضوء القمر، وأذان الفجر يؤذن الله أكبر الله أكبر حتى انتهى الكوب ورجعت للبيت، استسلمت للتفكير ونمت غارقًا أخيرًا لم أحلم بشيء كانت الرؤية سوداء فاستيقظت في ألم أتأوه وانتصبت بصعوبة، كنت هزيلًا جدًّا فقلت في خاطري ما بك يا ناصر؟ اثبت من المعتاد أن أكون نائمًا الآن وأشخر، لكن دوام الحال من المستحيل، فتحت باب الحمام وحركت مقبض الصنبور ليهبط الماء لكن لا ماء ولا هواء ولا رحمة، ما هذا الحظ العسير؟ ارتديت جلباب أبيض فضفاض قليلًا وذهبت للعمل دون أن أضع لقمة في فمي، كانت الشوارع خاوية والبشر في سبات والجو رطب شبورة الصبح مثل السحاب وكأن الأرض في السماء وأعمدة النور ما زالت موقدة، تمشيت وتمشيت لا أحس بوجع قدمي جفن عيني كله يرتخي فتصعقه إشارات الانتباه فأكمل، وصلت للسوق وجهزت العربة للزبائن، كان أمامي محل عطارة مالكة رجل عجوز يعرف عن السوق هذا أكثر من غيره، رحت أشتري من عنده قطعة من الشكولاتة الخام لأتغذى بها حتى لا يغمى عليّ، نظرت لعربة عم أيمن، ولم أجده سألت عنه فعرفت أنه مريض بمرض الفشل الكلوي ويغيب باشتداد مرضه.

قلت بصوت عالٍ: يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، لماذا لا يكتمل الخير كله، إنه النصيب قد يأتيك بيد لكنها لا تمتد دائمًا، كنت أصغر بائع

في السوق تقريبًا فكان هنالك من يعاملني بلطف والآخر غاضب وثائر كالثور الهائج، ضفت شكارة بطاطس وطماطم وخيار لتزداد الكمية، الوقوف بالنسبة لي طوال اليوم أمر مستحيل، فأحضرت كرسي العم أيمن وجلست عليه، كان اليوم عطلة والناس في إجازة هذا اليوم الزبائن كانوا قليلون كندرة المطر في الصيف، والمحصلة مئة وثلاثون جنيهًا وبعض القروش، حل الليل وغطيت العربة ورجعت لبيتي، كان أبي جالسًا في الصالة حدق بي بحدة عند دخولي.

فقلت له: ما الأمر؟

– تعال.

بعد سماع كلمة تعال هذه الكلمة المشؤمة فعلمت أن هناك كارثة.

قال بحزم بكم بعت في اليومين، غضبت من أسلوبه وقلت له أتحسبني سأسرقك أم ماذا؟ أخرجت دفتر به بيانات البيع والشراء وأعطيته إياه.

– لماذا أنت غاضب هكذا؟ نحن اتفقنا متابعة الأمر سويًّا.

متابعة الأمر ليس الساعة الواحدة ليلًا وبهذه الطريقة كدت أتبول لا إراديًّا.

ضحك أبي قائلًا:

– يومين مَرَّا تذهب صباحًا ولا أجدك، فقلت لنفسي هذا هو الحل أرني بكم بعت قطب ثم قال بـ 200 جنيه ليس سيئًا كنت أتوقع عدم قدرتك على بيع حبة واحدة.

– أتحسبني هينًا يا أحمد؟

– أتظن أنك بعد أن تناديني باسمي ستصبح رجلًا؟ اذهب يا أبا...

– بدون أن تكمل، إن أكملت سوف أضرب عن العمل.

– حسنًا، نم أنت وارتح ليوم الغد.

كنت ناعسًا فلثم جسدي الفراش البارد، حلمت أنني وسط مرعى أخضر أنتظر أحدًا لا أعلم من هو، كنت واقفًا مستمتعًا بالمرعى لكن الحلم انقطع عند هذا المشهد الخلاب، وألم في المعدة لم أستطع تحمله تأوهت من الألم، دخلت أختي إسراء الغرفة مرتبكة قائلة:

– ما بك؟

وتابعتها أمي وهي ترد:

– استر يا رب.

– بطني تؤلمني بشدة.

كان الألم يكتم فمي والكلام يخرج بصعوبة فذهبت مسرعًا إلى أقرب مستشفى حكومي ومعي أبي، كان المستشفى فقيرًا للأدوات الطبية، فجلست أتأوه ساعة حتى جاء طبيب وأعطاني مسكنًا للألم لأهدأ كالرضع ويبقى قليل من الألم الخفيف، وأخبرني أنها نزلة معوية، أعلمته بآخر ما أكلت فابتسم ابتسامة صفراء قائلًا:

– أكل الشارع لا غيره.

تنهد وتابع قائلًا:

– مصيبة كبيرة.

– ولماذا لا تأخذ طعامك معك؟

– أبي ليس وقت المناهدة هنا {أبوس إيدك}.

كتب لي روشتة بها عشرات الأدوية لتخزن في معدتي، رجعت البيت مع أبي الذي اشترى الدواء من صيدلية قريبة وحاولت النوم مرارًا وتكرارًا أتقلب في السرير مثل الثعبان لكن دون جدوى، كان أذان الظهر قد انطلق ووجدت يد أمي على جسدي الممدد ترقيني: بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، كانت يد أمي يدًا ملائكية فيها بركة أولياء الله الصالحين، وغرقت نائمًا كثيرًا، وعند استيقاظي أبي قال لي أن عم أيمن قد وقف

بدلًا منى وباع بمئة جنيه وجاء للبيت ليعطينا الأموال، بدأت أحب هذا الرجل، انطباع يجعل الثقة تحوم حوله، جاء مروان صديقي للاطمئنان علي، كان يرتدي تيشرت أسود لا أعلم هل كان يحسبني ميتًا أم ماذا؟ لكن لا غيره قد جاء ليطمئن عليّ وهذا هو الجانب المشرق في الأمر، جلسنا نثرثر كثيرًا وحكى عن حبيبته التي لا تلتفت إليه ولا تعتبره كائنًا حيًّا، وصراحة كان يكلم أفشل شخص في تكوين العلاقات العاطفية، كنت أهز رأسي مع تغير إيماءات الوجه محاولًا الاهتمام، كنت جالسًا أنا ومروان وأمي وأختي في الصالة ولا يسرح خيالكم كثيرًا، بيتنا مجرد قفص لكن به مخارج، إنه ككهف بشبابيك.

قالت إسراء وهي ترتشف من كوب به رسومات كرتونية، لا أعلم لماذا يأكل من الشارع؟ أمي تطهو له الأكل هنا وتجهزه له كل يوم قبل أن يذهب للعمل.

– نسيته وقسمًا بالله نسيته، آخر مرة آكل فيها من أكل الشارع، لقد كانت ساندوتشات المربى والجبن وكان طعمها لذيذًا والأمر صار على ما يرام انتهيت من العمل ونمت لأستيقظ على وجع لا أستطيع تحمله.

قال مروان وهو يضحك ربما أكل فأرًا:

– حاول أن تحسن أداءك في الكوميديا يا صديقي بهذا الأداء أشك أنها ستجلس معك يومًا ما.

تحفظ قليلًا ثم قال:

– أنا أمزح هل ستشي بي أم ماذا؟

– نعم سأفعل إن أغرقتنا بكوميدياك مرة أخرى.

كانت أمي بجانبي فوضعت يديها حول كتفي وقالت: ابني الحبيب ربنا يشفيه ويرجع أفضل مما كان.

ردد الجميع: إن شاء الله.

ومرت الأيام وانتشر الدواء في دمائي، ومع حساء أمي عادت صحتي أفضل، كانت أيامًا ثقالًا كنت سجينًا في غرفتي الضيقة، كل ما أفعله هو تقشير قطعة خشبية لصنع تمثال أو المذاكرة لموادي الفنية، اخترت قسم زخرفة في الثانوي الصناعي؛ ليزيد تعلمي فنون الإبداع.

في الساعة السابعة صباحًا أغلقت الباب خلفي وذهبت للعمل، كان عقلي يتعامل مع الناس على أنها كائنات من كوكب آخر، كان السوق هادئًا هذا اليوم لم أجد اثنان يتعاركان أو بضائع وقعت من عربة على الأرض كما يحدث عادة، وجدت عم أيمن جالسًا يقرأ القرآن كان مصحفًا قديمًا أوراقه قديمة، عندما لاحظني ترك المصحف وقام يعانقني بحرارة وكأني جئت من حرب، كان جسده يرتعش فسألته عن صحته قال لي أنه المرض وأن هذه الرعشة طبيعية، دائما ما أحزن على حال هذا

الرجل رغم مرضي يعمل ويتحمل مثل الصخرة، أحضرت كرسيًّا ونطقت باسم الله، مرت ثلاث ساعات بلا زبائن وثم فجأة وجدت زميلًا لي في المدرسة يطلقون عليه "دحيح"، على وجهه نظارة نظر ويمشي مثل البطاريق تمنيت ألا يقف أو ينتبه أو يلتفت.

– ناصر ماذا تفعل هنا؟

– تبًّا.

جاوبته بسخرية وأنا أمسك بحبة طماطم:

– أعمل.

– أنا أعرف أنك تعمل نحن في الصف الثاني الثانوي يا زميل، ركز كان يضحك مثل الببغاء بين الكلمات، وإيماءات وجهه توحي أنه عنده مشكلة في الوجه تفقده القدرة على إرسال إشارات السعادة بين الجهاز العصبي والوجه، قلت باستياء وماذا عنك؟ هل أخذت دور أمك في البيت وتوليت مهمة شراء مستلزمات البيت أم ماذا؟

شعر بقليل من الحزن، يا إلهي إنه يشعر، ربما أمه قد ماتت.

وضع يده على بطنه محاولًا التكيف، وهل بهذا العمل لديك وقت للمذاكرة؟

وقف زبون بجانبه رجل أبيض اللون من سكان الشمال على ما يبدو سائحًا، قلت هل ستشتري؟ هز زميلي رأسه بالنفي.

عاودت التكلم للزبون، لقد جئت لي من السماء لا أحب هذا الشخص.

ابتسم الرجل الأربعيني قائلًا:

– وهو يبدو لا يُحب هل تعرفه؟

– مع الأسف، هل ترى حتى الناس من خارج أسوان يرونك ثقيل الدم؟ وحدا الله يبدو عليكما أنكما أولاد ناس، زن لي ثلاثة كيلو من البطاطس.

– تحت أمرك.

ومن الرائع وجودي في البيت والجميع نائم تشعر أنك مالك البيت، كان صوت البيت كصوت الصحراء تمددت على فراشي ممسكًا الكتب أذاكر، كتب فيزياء ورياضيات لغة عربية ورسم فني، كانت أوراقًا مرصوصة فوق بعضها لكن مظهرها مرعب، إنه نظام التعليم الذكي (احفظ مثل الحمار)، قلت لنفسي يا ويلتي من كل هذا أنا لا أدرس الطب أنا طالب في الثانوية، استجمعت قواي وقررت خوض المعركة، كنت أحسب أن عقلي تجمد بعد الشهور التي عملت بها تاجرًا، لكن وجدت نفسي أستوعب أكثر وأفهم كالأذكياء دون المراجعة على

المنهج، كان الوقت يمر بصعوبة وأنا جالس أدقق في الصفحات مسجونًا داخل الكتب، أريد التبول لكني أتردد، ريقي جف مثل غصن الشجر وكسول على الماء، كل هذا من اجتياز الامتحان والحصول على الدبلوم، غلبني النوم واستيقظت باكرًا كعادتي وجدت أختي إسراء مستيقظة تبكي ممسكة المنديل تمسح دموعها، إنها أكثر شخص قد ترونه يبكي على الإطلاق.

اقتربت منها جالسًا بجانبها.

– ما سر هذه الدموع يا إسراء؟

– الشيكو.

– ماذا؟

أدارت وجهها نحوي قائلة الشيكو هذا ولد ونحن نحب بعضنا.

من الطبيعي أن أوسعها ضربًا لكني لم ألبس ثوب رجل صعيدي من بيئة قاسية العادات بل تنهدت وحاولت التريث لأفهم منها أكثر من هذا، بعدها سوف ألبس ثياب وجه قبلي كله وأنزل بالعصا عليها.

– هذا رائع، ولماذا تبكين إذًا هل ضربك؟

– لا لا يجرؤ كنت قطعت يده، وجدته يكلم صديقتي ويبدو أنه يتقرب منها أكثر أنا لا أريد ذلك أريده لي فقط.

– من أين تعرفينه؟

– من الدروس الخصوصية هو زميل، تقابلنا مرتين فقط لكننا نحب بعضنا، ثم انهالت بالبكاء أكثر.

– وماذا تريديني أن أفعل لكِ أيتها المجنونة؟ دعيه وشأنه وانتبهي لدراستك أنت ما زلت طفلة، هل أقول لأبي؟ إن أباكِ يدخر المال في تعليمك وتذهبين للدروس الخصوصية وأنت فتاة فتاااااة! أنا هااه اسمي راجل البيت بعد أبيك لم أذهب للدروس الخصوصية، تستغلين ذلك في الحب والغرام! يا لكِ من قذرة!

– أنا آسفة! لا لا إلا أبي!

وقفت وهي تمسح دموعها ودخلت غرفتها.

تابعتها ثم فتحت الباب:

– لِم لا تحاولين أن تعرفيني عليه؟

أطالت النظر لي تفكر ثم قالت:

– ألن تفعل شيئًا؟

– لا فقط أريد التعرف عليه، ألستم تحبون بعضكما؟ وأنا أريد معرفة حبيب أختي.

توارت خجلًا ثم هزت رأسها موافقة.

علاقة عاطفية للأطفال، يا له من أمر مقزز! لكن صبرًا علي أيتها الكلبة أعرف فقط من هذا ولن أعتقه.

عاودت العمل على عربتي والأيام مضت والشهور تولت ومرت سنة وأنا أعمل، تعلمت أن أكون بائعًا ماهرًا أخرج نقود الزبائن كالساحر، الدقائق كانت تمر أيامًا والوقت يستعرض وجوده، أما عن تكوين الصداقات فلم أصادق أحدًا فقط عم أيمن هذا الرجل الشهم، هذا المجال لا يوجد به صداقة أو قرابة بل المصلحة تعلو فوق الجميع، عند تجميع الإيراد كنت أفرح وأشعر بالإنجاز، شعور جميل حقًّا، ظهر في ذقني في هذه السنة شعر أكثر، وطالت قامتي بعض المليمترات ومتنت يدي من تحمل مشاق العمل، وبت أعرف عن الناس وأتمنى لو لم أعلم، نجحت في الصف الثاني الثانوي الصناعي وصرت أدرس في آخر سنة في الدبلوم وعلي المذاكرة والتركيز في الدراسة، كنت في بداية العام الدراسي آخذ الكتب معي وأذاكر وأنا أبيع، والبائعون ينظرون لي باستغراب، أما عن الزبائن فكانت نظرات اعتيادية لكن الامتحانات قد اقتربت ويجب أن

تتلاءم الظروف لنجاحي، اتفقت مع أبي أن أقلل ساعات العمل، لم يتردد في الموافقة.

كانت أختي علياء تعاني مع زوجها النرجسي، أصرت على الطلاق لكنه رفض وهجرت البيت وجلست مع ابنها، معنا صار في البيت ستة أفراد، كنا كدجاجات في عشة، تركت وظيفتها في الإسكندرية، كانت تعمل معلمة في حضانة أطفال، وصارت تبحث عن عمل هنا، بحثت هي وأبي في كل شوارع أسوان عن حضانة أو مدرسة تقبلها كمعلمة، وفي النهاية وجدت عملًا في كوم أمبو، مدرسة رياضيات لأطفال، كان حلًّا للتكفل بابنها المقبل على خبايا الحياة.

كبر عبد الله قليلًا صار يتلكم بلباقة ويبدو أنه سيكون ذكيًّا، اشترى لعبة شطرنج وصار يتعلمها وبات يلعب مع أبي لكنه لم يصل لمستواه في اللعب.

– أنت تلعب بشكل ممتاز يبدو أنها جينات لعب الشطرنج قد ورثتها عني.

كنت جالسًا أراقب اللعب فقلت مازحًا نعم إنها جيناتنا الفقيرة ما زال بها بعض الحظ.

لم يبتسم أبي حتى، أما عبد الله فلم يفهم فقال أبي بحدة:

– مزحة سيئة.

– سأشرح لكم الأمر هو لا يحب المزاح أو إلقاء نكات سياسية، يتبدد عند سماع نكتة عن الرئيس الموقر من إبان عهد محمد نجيب حتى الإله الحالي، رجل ذو نفس قوية، شديد الطبع، حمدًا لله أننا لمن نرث هذا منه.

***

عانت علياء كثيرا بعد أن تركت زوجها أو بالأحرى بعد اختفائه، تدرجت أرقام الأشهر بأيام عنوانها "أين زوجك؟" تصوبت نظرات كل من في البيت نحوها بتساؤلات مكتومة بعض منها شفقة وطرف قريب هي الحسرة، كان همها الاعتناء بطفلها والعمل، ورمي ماضٍ أبعاده تحوطها كدخان ملوث، والاستقرار بجوار عائلتها، التطفل يقتلني جلست بجوارها دقائق التردد يتلبسني بقبضة متينة:

– ألا يوجد أخبار عن...؟

– قبل أن تكمل، لا وإن كانت هناك لا أريد أن أعرف عنه شيئًا.

قلت بحذر: كيف؟ هو زوجك ويجب أن نعرف أين هو ونتواصل معه.

صاحت بغضب: أنا قلت لا أريد معرفة شيءٍ، ماذا تريد مني؟

– لا شيء، أنا فقط قلق عليه.

– قلق عليه هه هذا لا أحد يقلق عليه إنه مثل القطط بسبعة أرواح.

– حسنًا وكيف حال العمل هذا يسير جيدًا؟

نعم، أثار السؤال عنه نحيبها فاقتربت منها مصالحًا:

– أنا لم أقصد أنت تعلمين مدى حبي لك يا لي من أحمق، كيف أن أتجرأ وأعكر مزاجك؟

بينما كانت دموعها تنهمر قالت:

– أنت تيقنت الآن ماذا يزعجني.

– ربنا يحرق أبوه يا أختي كفي عن البكاء أرجوك.

ما هذا الهم الذي أصابك يا أختي؟ كنت ولهانة عاشقة هذا الرجل ثم انقلب وتهشمت مشاعر الحب لتتحول إلى كراهية، من نعاتب؟ أنعاتب القدر الذي جمعكما أم أهواءكما المخذولة دائمًا؟

***

الساعة الثانية ظهرًا أقف أمام عربتي، الحياة تقف عندما أقف أمام هذه العربة، لا أشعر بالزمن وأحيانًا لا أشعر حتى بالمكان، ذهني يطفو

بعيدًا، وأدقق بحواسي في كل شيء حولي، أناس كثيرون يمشون وأطفال تجري، أصوات الناس تتداخل محدثة ضوضاء، أناس سعداء وآخرون مهمومون، رجال أنهوا عملهم ليكملوا واجبهم المعيشي، رائحة شواء سمك عابرة أنفي مستقرة في صدري، وأمسح عرقي بمنديل كل دقيقة وأغفو من الإرهاق وأقاوم، من كثرة الملل أتخيل أن البطاطس والطماطم يتعاركان والقشد يفك الشجار، كل هذا التفكير ينتهي عند وصول زبون لمحطتي.

هبط في أمان كان رجلًا أسود بشارب كبير رأسه خالية من الشعر كأنه لم يولد به، خاتم فضي عليه علامة غريبة في إصبع البنصر، وقال بصوت غليظ أريد عشرة كيلو من البطاطس، لديه كفان ضخمان سيتحمل، عبأت طلبه الثقيل أخرج محفظته المتضخمة وحاسبني ورحل، ثم فوجئت برجوعه وطلبه المزيد من البطاطس، سألته إن كان يعمل في مطعم، كان تخمينًا صائبًا فهذا الرجل لديه مطعم فول وفلافل، عرض علي زيارة مطعمه الذي وصفه بالمتواضع، فوعدته بذلك، كان وعدًا ليس جديًّا لكن لم أرد أن أكون وقحًا، يحين العصر ويؤذن ويقل زوار السوق ومعه الرزق، وأرحل لبيتي المأوى الوحيد، توضأت وأثناء صلاتي دعوت الله في السجود، وتابعت مذاكرتي التي لا تنتهي، أود حقًّا انتهاء هذا الشقاء، كانت الأمور ستكون أفضل إن كنت من عائلة ثرية، شاب

في سني سيكون طالبًا فقط ويمارس شبابه ويستيقظ للتنزه أو ما شابه، لكنها الحياة لا تعطي مثلما تريد.

بشرة متجعدة وحناء مرسومة على اليد، كحل على الرموش يزين العين، ورائحة السمن أشمها عند تقبيل يدها، وزن زائد نتيجة الجلوس في البيت وابتسامة رغم المرض هكذا أمي المرأة المكافحة التي ربتني، كانت ملامحها تنذر بكبر عمرها شعرت أن عمرها يمر فتمنيت أن يأخذ الله من عمري ويعطيها، لم أتخيل أكثر والتعب زاد فعرفت القلق وتيقنت أن اللحظات معها أثمن من أي شيء في العالم، وضعت قلبي تحت إمرتها واستنشقت أحاديثها وقصصها المشوقة مثل استنشاقي للهواء.

كانت أمي تربي الدجاج في سطح البيت فتهتم بها وترعى أفراخها الصغار، تشتري الكتاكيت وتنهض بهم حتى يصيروا دجاجًا، عشش من الأخشاب والحديد البسيط وتحميها من أشعة الشمس مظلات من البلاستيك الرقيق، كانت تجلس بجانب هذه العشش لساعات طويلة تراقب أفراخها وكأنها أطفالها الصغار.

صعدت السلالم لسطح البيت في وقت العصر كانت بجانب عشتها فأحضرت قطعة من الكرتون كانت ملقاة على الأرض وجلست مقابلًا لها:

– ماذا تفعلين هنا؟

قالت: أطعم الدجاج.

نبرة صوتها لاهثه قليلًا من التعب.

– أعلم، لكنك متعبة والطبيب نصحك بألا تمارسي نشاطًا بدنيًّا مجهدًا.

تنهدت ثم قالت:

– أنا بخير، أنا بخير.

لديها حنكة دينية أكثر من خطباء المنابر والشيوخ فنصيحتها زاخرة بالحكمة والموعظة، كنت أنتبه لها راميًا حواسي بين نصائحها.

– سأحكي لك قصة عن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

فقلت:

– صلى الله عليه وسلم.

– بينما يلهو النبي ﷺ مع أقرانه من الصغار في جوار بني سعد، ولم يتجاوز عمره حينها الخمس سنوات، حيث نزل جبريل عليه السلام فأخذه وشق صدره واستخرج جبريل قلب النبي وشقه لينزع منه علقة كانت آخر حظ للشيطان في قلبه الطاهر، كما غسل قلبه بماء زمزم في طست أو طبق ذهبي. أعاد جبريل قلب النبي لمكانه بعد غلقه وتركه

طيب القلب نقيًا، وقد أعادته حليمة بعد تلك الحادثة إلى قومه خشيةً عليه.

نبينا الكريم أشرف الخلق هو أفضل مثال لكي نروي قصصه فالحكمة من هذه القصة هو أن نفس الرسول طاهرة منذ صغره، فقد حماها الله ونقاها من الشرور فلهذا هو خير مثال ليكون نبيًّا شريفًا مباركًا.

الشمس غابت في سماء صافية بها بعض السحب، أذان المغرب سمعناه وقمنا سويًّا نصلي، خطت أقدامي إلى المسجد، أما أمي فتعودت الصلاة جالسة لضعف ساقيها.

صيد الأسماك متنساش.

أمام مدرسة الأوائل الإعدادية كنت أقف أنا وأختي لملاقاة حبيبها الذي اتفقت معها على مقابلته بعد شهور من المحايلة والتودد، طلبة يخرجون من المدرسة وعربات تسير بسرعة جنونية وأمهات ينتظرن بناتهن، وعراك نشب بين طالبين يجتمع حوله كل من في الشارع، وعربة يقودها حمار، يركبها رجل ممسك بميكروفون يقول أي حاجة قديمة للبيع، ومحلات تجارية ترفع أبوابها لتفتح، وحرارة الجو تبخر أي ماء وجد، كنت أتابع المارة بناظري وأراقب من يخرج من المدرسة وأقول في نفسي ترى ما شكل هذا الولد المتقمص لدور رميو؟ فتى في عمر الخامسة عشرة يعيش مع أختي قصة حب يا للمأساة.

– لقد تأخر.

قالت إسراء في توجس:

– دقيقة وسيخرج انتظر.

شاب أسمر في طول قامتي ولديه وسامة تشد مثل الجاذبية الأرضية، خاتم فضة في إصبع من أصابعه ولباسه المدرسي مغطى بالتراب، ابتسمت إسراء عندما أطل ومدت يديها لتسلم عليه، كأنها رأت نجمًا تلفزيونيًّا وأمسكت أعصابي كي لا أثور؛ لأنه يبدو أن ما بينهما أمر جدي، وهذا بالطبع ليس سببًا؛ لأنهما يتوهمان بقصة الحب هذه، كان هذا الولد واثقًا من نفسه إلى حد أنني خفت.

قال بحدة وهو يصافحني أهلًا بك، أنا شيكو ثم ضحك بغرابة أو شاكر وهذا اسمي الحقيقي.

أهلًا بك، أنتما حقًّا تحبان بعضكما؟ نظرا لبعضهما في صمت ثم اتخذت موضع الهجوم، اسمع أنتما ما زلتما أطفالًا، أعماركما لم تتجاوز السادسة عشر، الأمر إن وصل لأهاليكم سيحدث غضبًا، والأمور لن تكون في صالحكم، ابتعد عن أختي وهذا أفضل للجميع.

انقلب وجهه للضعف وتمتم قائلًا:

– لكننا...

– لا أريد سماع شيءٍ، حينما تكبر قليلًا تعال واخطبها، هذا ما أستطيع قوله لك، ماذا يعمل والدك؟

– والدي يعمل مقاولًا.

– وأين تسكن؟

– أنا من الدكة.

– حسنًا أنا جئت لأشرح لك خطورة ما تشرعوا فيه، التقبل والعيش على أنكما تحبان بعضكما، هذه المعيشة تعاش في سويسرا وليس هنا، نحن صعايدة ملتزمون بعادات، لولا أني أراك شابًّا مهندمًا لكنت وبختك، إن كنتما تتقابلان خفية فأنا أحذركما؛ لأنني سأراقبكما، وإن وجدتك يا إسراء معه لن أرحمك.

– ثانية.

– أنت سمعت ما قلته جديًّا قلت وأنا أخبط على صدره مرتين محذرًا.

ثم سحبت يد أختي إسراء التي بكت وابتعدنا عن هذا الولد الذي استل الاستياء من مشاعره، أقدر مشاعر غيري لكنهم ما زالا صغيرين وأمامهما العمر للتفكير مليًّا في خطواتهما.

أتتعجبون من تصرفي صحيح؟ وأنا قسمًا بالله لا أصدق نفسي أحيانًا هادئ كمياه فاترة، وودود مثل البادجي، لماذا أعيش في هذه البقعة؟ أنا مكاني بين أناس متحضرين ليس هنا، إن سمعتم عن رجل صعيدي فستتخيلون التعصب والصوت الخشن والتصرف الطائش والشدة الزائدة من الصغير قبل الكبير، لكن هذه الحمى لم أصب بها حمدًا لله.

يوم عمل آخر هكذا حياتي البائسة التي لطالما تمنيت تبددها، كان الشارع الذي به عربتي مدجج بالبشر فحمدت الله أن العمل سيكون على ما يرام، أخرج من اليوم بمبلغ قوي وقد أشتري وجبة طعام من أحد محلات الوجبات السريعة، وصلت لعربتي أخيرًا بعد المشي من بداية الشارع الطويل فوجئت بعربة أمامي كانت عربة بها تفاح، كان فتى صغيرًا حسبته يمتلك هذه العربة لكن حضر أبوه رجل يصرخ على تفاحاته ولديه علامة (غرز) من جرح تشوه وجهه، وضخم البنية، وكرشه ممتد للأمام مثل المقبلين على الحمل في الشهر التاسع.

– السلام عليكم.

رد هذا الرجل البلطجي بغير اكتراث وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

– عربتي خلفك وأنت تحجب الزبائن عني وتقطع رزقي انتقل لمكان آخر.

قلتها وأنا أنوي العراك لقد جعل العمل في هذا المجال قلبي مثل الحجر.

– ولِم لا تنتقل أنت لمكان آخر؟

– أنا أعمل هنا منذ سنة لا أعلم ما هذه البجاحة التي أنت بها لتأخذ مكان غيرك.

زمجر الرجل وامتزجت ملامحه وقال في سخط:

– من أنت أيها الطفل لتتحدث إلي هكذا، تجمع الناس حولنا في هذه اللحظة كان البعض يقول اهدؤوا وصلوا على النبي ويحاولون إبعادنا عن بعضنا بأيديهم.

– أنا ناصر وأعمل هنا منذ سنة عربتي خلف عربتك مباشرة سترحل وإلا أمسكت سكينًا وغرستها في بطنك.

أمسك هذا الرجل عصا كان يخبؤها لا أعلم أين وهجم علي بها لكن البائعين أوقفوه، فعلت أمرًا مماثلًا لكن لم أستطع من الحشد الملتف حولنا فكرت في الجري عليه ولكمته في وجهه المنتفخ بالدهون أو قلب عربته ليقع التفاح على الأرض، لكن الناس أمسكوا بنا حتى لا تحدث جريمة.

قال مزمجرًا: ألا ترون أنه يعلي صوته ويظن أن السوق ملكه؟

– اذهب أيها الأعوج من هنا.

كان هناك شرطي أمسك بنا نحن الاثنان وذهبنا إلى قسم الشرطة لنحل هذه المعضلة وجدت أبي في قسم الشرطة معه عمي الذي يعمل ضابطًا في الجيش، أما هذا الرجل فلم يأتِ له أحد يبدو أنه مكروه من بني البشر والحيوانات معًا.

وقفنا والمأمور يسألنا عن واقعة الشجار كان رجلًا في الثلاثين يتحدث بلهجة أهل المدن الشماليين كان يتكلم بوقار ولباقة حكيت قصتي وهو من جانبه فعل ذلك، وانتهي الأمر أن الرجل سيرحل من المكان بالتراضي، شكرت الله على وقوفه بجانبي وحضور عمي أضاف لموقفي بعض الثبات كونه ضابطًا في الجيش، والتوسط كان لا بد منه، بعد هذا اليوم السيئ رجعت للبيت أنا وأبي.

قال أبي حمدًا لله أن الأمور جرت هكذا، السوق تابع للحكومة وأمور التجار تسير بينهم بالتراضي ولا شأن للمسؤولين بتنظيم السوق، لكن حظك أنه كان يوجد شرطي كان من الممكن أن يؤذيك هذا الرجل.

نعم كان هذا الرجل يظن أنني كوني صغيرًا سيستغفلني، ثم انتظر هنا لم يمر الأمر مرور الكرام لم أسمح له بالوقوف هنا وعربتي خلفه.

تنهد أبي قائلًا:

– لا تنفخ صدرك مثل الديك أنت تاجر ولست رجل عصابات، لا أريدك أن تفتعل المشاكل.

كنت أحسبه أنه سينعتني بالشتائم ويغضب أو يصفعني على خدي، ربما كان يفكر أن ابنه سيضيع في قضية مشاجرة، حمدًا لله على بساطة المشكلة، هو رجل شديد الطبع لكن عندما يرانا في ضعف يضعف هو الآخر.

اثنان ضرب اثنان بأربعة وخمسة جمع خمسة عشرة ما المشكلة في ذلك أنت لا تفهم أنت غبي أنا أشرح لك كل مرة الرياضيات هكذا، قالتها علياء في غضب.

كان عبد الله يجلس بجانب أمه تذاكر له مواده الدراسية ويعاني مع مادة الرياضيات منذ معرفته بالتعليم.

احمرار انتشر في وجهه، يتلعثم لا يعرف بماذا يجيب أو ماذا يقول.

صرخت فيه وهو من الخوف انهالت دموعه البريئة، قاطعت صراخها قائلًا:

– علياء كفي عن الصراخ وعلمي ابنك بالعقل.

– وهذا الحمار لا ينفع معه العقل كل يوم على هذا الموال.

كان كلامها بمنزلة طلقات الرصاص في مشاعر عبد الله.

قلت لها أنني سأشرح له هذه المادة، أنا حقًّا بارع في مادة الرياضيات، بالطبع أكذب فهذه عقدة منذ الصغر على الأقل أساعد قبل أن يقتل هذه الصبي على يد أختي المفترية، وجلسنا نذاكر وأحضر مادة كل كتب الرياضيات الخاصة به.

بعد اطلاعي على نتائجه، حسنًا أنت تحتاج إلى حفظ جدول الضرب بشكل على الأقل جيد، لديك أيضًا مشكلة في الجمع والطرح وسنعالجها بإعطائك مسائل رياضية وستحلها، قل لي ما الصعب في حاصل ضرب ثلاثة في ثلاثة؟

أجاب بتلقائية:

– تسعة.

قطبت ثم قلت:

– أنت حافظ بشكل جيد ما المشكلة يا عم عبد الله؟

– المشكلة أنها تضربني وتصرخ.

زاد كلامه استغرابي.

– أتقصد أن المشكلة أنك تذاكر مع أمك؟ ترتبك عند الجلوس بجانبها وأنت تحمل الكتاب شيئًا غريبًا، حسنًا أنت الآن لست بجانبها أرني ماذا ستفعل؟

بالفعل وجدته يحل المسائل الرياضية بسلاسة ويسر وكأنه شخص آخر، عرفت أصل المشكلة، إنها علياء المعلمة التي تعلم التلاميذ، يا ترى كم عدد ضحاياها أتمنى ألا يكونوا بالمئات، إنها مصيبة وجود معلمين بهذا السوء.

***

طفح بي الكيل من العمل تاجرًا في السوق، ليس طموح الفرد هو العمل طوال هذا الوقت من اليوم والتعامل مع هؤلاء الأشخاص الذين يجهلون القراءة والكتابة، لست عنصريًّا لكن فوارق التفكير متباينة، التحضر منعدم وأشعر أنني أقف في غابة للبشر، طباع الناس سيئة تتلبسهم شياطين أعطي ترحابًا وألاقي تكشيرًا، أمي كانت تقول لي الناس سابقًا كانوا طيبين، أخلاقهم تسبق أفعالهم يتعاملون مع بعضهم بحسنة أما الزمن غير الزمن كنت أتمنى أن أعيش في حقبة شباب أمي، سيكون الصخب أقل والشوارع هادئة والناس قليلين وهذا يجعل البلد أكثر أمانًا، القدر يا أعزائي لا يختاره أحد، وإن كان لي اختيار لما كنت على هذه الحال.

أفكر في السفر خارج أسوان والعمل في مجال آخر، أسمع من الأخبار المتناقلة أن مدينة شرم الشيخ صارت كبيرة ويحتاجون لأناس للعمل في مجال السياحة، سأجرب حظي، أنتهي من الامتحانات وأحصل على الدبلوم وأتوجه إلى هذه المدينة، لكن لا أعرف ماذا أفعل مع والدي؟ كيف أقول له أنني أريد ترك العمل؟ سأحاول إقناعه.

تفرقنا أنا ومروان صديقي وعدنا لا نتقابل مثل السابق، فكان قرار الذهاب لرؤيته قرارًا حكيمًا، كان يعيش في منطقة قريبة فكان الوصول له سهلًا، إلا أنني لم أجده في البيت، أخبرتني أمه أنه يعمل عامل بناء، تساءلت كيف لهذا النحيل أن يحمل شكائر الأسمنت الثقيلة؟ بعد سؤال المارة عن مكان العمل فعلمت أنه يعمل في منطقة بناء جديدة كانت كل الأبنية بالطوب الأحمر، ورجال يحملون أسياخ الحديد فوق أكتافهم، وعربات نقل كبيرة حاملة رمالًا صفراء، سألت أحد العاملين عن مروان السيد فأشار لي أنه يعمل في بناية من أربعة طوابق؛ فصعدت له يقف على سقالة كان يبني سورًا مستعينًا بالطوب والأسمنت، ويعمل بمهارة فائقة تعجبت منها.

– الله ينور يا أسطى مروان.

الفتت للخلف ليجدني فابتسم، انقض علي لاحتضاني ويده الملطخة بالأسمنت وسخت القميص.

قال مروان:

– كيف الحال يا ندل؟

– بخير، الآن عرفت أين اختفيت طوال هذه الأشهر.

– أكل العيش يا صديقي ماذا أفعل.

– اجلس اجلس، فجلست على قوالب من الطوب الأسمنتي مرصوصة وجلب كوبين من الشاي وجلسنا نتكلم، كنت مشتاقًا له لا أفلت عيني من عليه وهو كذلك.

– إنني أفكر في السفر خارج أسوان للعمل في مجال السياحة ما رأيك؟

– والله يا صديقي لا أعلم إن كنت سترتاح من فعل هذا فتوكل على الله لكن اسأل أيضًا هنا وهناك ولا تسافر قبل أن تكون معلومات كبيرة عن الأمر، ولم لا تعمل في أسوان؟ الآثار هنا كثيرة.

– إن أغلب السياح يحبون السفر للشواطئ ففكرت السفر في شرم الشيخ وهي مدينة مزدهرة بالسياحة هناك، نحن في 2003 والسياحة الآن ليست كسابق عهدها فعدد السياح يزيد وفنادق كثيرة تفتح.

– وهل هناك مجال معين تريد العمل فيه إن سافرت؟

– سأعمل أي شيء، المهم هو الخروج من هنا وأن أجد نفسي في أي عمل آخر.

– من اقترح عليك ترك عملك هل أملى عليك أحد ذلك؟

– لا لم يُملِ علي أحد، أريد أن أترك قريتي والبحث عن أناس جدد وأناس مختلفين وتجربة حياة جديدة.

– الله معك يا صديقي، لكن لا يغرك السائحون أغلبهم أولاد كافرة، غير إن الخمور هناك منتشرة أكثر من الماء.

– خمور ماذا يا بو مخ ضلم؟ أنا ذاهب للعمل وليس للشرب، أنا لم أكمل التاسعة عشر غير أنني لن أنفق راتبي على هذه الأشياء.

– عندك حق سوف أسأل لك أي شخص أعرفه قد يساعدك هناك.

– ليس هذا المهم، أنا أريد ألف جنيه سلف.

صمت قليلًا ناظرًا للأرض، توقعت أنه مفلس أو أنه يمتلك لكن يحتفظ بالمال.

– لا عليك لا مشكلة سأدبر أمري.

– ومن قال أنني ليس لدي المال، سأعطيك إياها في المساء.

– هذا هو صديقي، إذًا لماذا نظرت للأرض وجعلتني أحرج من السؤال؟

– لا، كنت أفكر في شخص يعمل هناك سوف أدلك عليه انتظرني مساء ولا تنم قد أتأخر.

– سأكون في انتظارك.

الامتحانات قد اقتربت وصرت لا أعمل كثيرًا، كنت أركز في المواد الدراسية المقررة علي، جدول الامتحانات ظهر وعلمت أنني سأمتحن قريبًا جدًّا، ستقام الامتحانات في بداية شهر يوليو والآن نهاية شهر يونيو، برز التوجس وتفكيري انصب متمنيًّا النجاح بدرجة مميزة، أغلقت باب غرفتي علي ولم أخرج منها إلا لقضاء الحاجة، كنت أسهر بالساعات على ضوءٍ لمصباح خفيف الإضاءة وأنام حالمًا بأنني في اللجنة، حل يوم الامتحان كانت مادة اللغة العربية، استحممت لأنتعش، وصلت المدرسة باكرًا بعد ركوب المواصلات، مدرستي حكومية متجردة من مقاومات التعليم الفني، كانت الأجواء متوترة بين الطلبة والمعلمين وكنت أنا كذلك أيضًا كانت لجنة الامتحان بها طلاب لم أرهم منذ العام الفائت كنا سويًّا في جميع المراحل التعليمية منذ الابتدائية، كبرنا معًا التحقنا بنفس المدارس معًا، كنت مشتاقًا إليهم وسلمت وألقيت التحية على بعضهم ونزلت ورقة الامتحان على الطاولات، بعض الطلبة حدقوا في الورقة كأنهم وجدوا صورة إباحية،

وآخرون ابتسموا في راحة، أما أنا فعبرت عن الرضا حاولت الغش في بعض الأسئلة لكن يقف أمامنا رجلان يرتدي كل منهما نظارة شمسية وبشوارب عريضة يشبهون رجال البوليس، يصرخون مع تنفس الطلاب، عصرت رأسي وجاوبت على جميع الأسئلة ولم أترك سؤالًا، أشك في البعض لكن المهم أنني لم أترك سؤالًا وإلا أجبت عنه، انتظرت خارج المدرسة بعض الأصدقاء أشار علينا أن نذهب إلى المقهى، كان بعضهم يدخنون السجائر وعرض علي أخذ سيجارة فقلت له إنني لا أدخن، بعد الانتهاء من نفخ الدخان وشرب الشاي والشيشة رجعت البيت كانت أمي تنتظرني وكأني كنت مسافرًا.

– كيف كان الامتحان؟

– جيد.

– ربنا يكرمك يا ابني يا رب وينجحك.

كانت دعوات أمي تحثني على الاستمرار في هذا العالم، أنا حقًّا إن خرجت من سرد هذه القصة وصرت حقيقيًّا أريد ألا أولد في الأصل، الكاتب هو من يريد ذلك.

***

أوراق جرائد مفروشة، أطباق من الأرز توضع على هذه الأوراق المفروشة على الأرض، وصينية من البطاطس المسلوقة تحتها خبر حادث قطار مات فيه العشرات، وحساء تسبح فيه أرجل دجاج مسلوق، ومخلل قليل في طبق هو الأصغر، رائحة كل هذا ذكية تنشط حاسة الشم، يجتمع أفراد أسرتنا للغداء في وقت العصر، أبي كان يضع الأطباق مع أمي لأول مرة يبدو أنه أحس أخيرًا أن زوجته تجهد مثل باقي البشر، وقرر أن يكون متعاونًا وإسراء وعلياء هما من أعدتا الطعام وأنا كنت أعمل طوال اليوم، دخل كل منهم بالتناوب، قال أبي: سموا الله قبل الأكل؛ فردد الكل بسم الله الرحمن الرحيم، كان الأكل لذيذًا مطهوًّا بعناية ومغموسًا بالزبد والزيت، لا أختلف مع النساء في طهي الطعام أشعر أنهن خلقن يعرفن الطهي، انتهينا من ملء بطوننا ورفعت الأطباق إلى المطبخ لكي تُغسل، وجلست أنا وأبي أمام شاشة التلفاز الصغيرة نحتسي الشاي دار في رأسي أن أخبره بأنني أنوي ترك العمل، ووضعت احتمالات هل سيقتلني أم سيكتفي بإحداث إصابة؟ قلت في نفسي (لا، لأدع الأمر الآن إلى أن تنتهي الامتحانات وتظهر النتيجة).

طال غياب زوج علياء لأشهر، اختفى كاختفاء البخار في الهواء، لم نسمع أخبارًا عنه وقطعت اتصالاته بنا، كانت أسرتنا في حالة تعجب من تصرفه، وبدأنا نتساءل هل من الممكن أنه وقع في حادث؟ هل مات؟ هل فعل ذلك لتعرضه لاضطرابات نفسية؟ هل سافر وترك البلد؟

كانت علياء غير مكترثة، كان تفكيرها أنها تعمل وتنفق على ابنها، فزوجها هذا لا محل له من الإعراب، كانت قوية وتتعامل مع المسألة بحكمة لم تجلس تولول على حالها، ولم تنتظر زوجها المتخاذل بل بحثت عن عمل وتابعت حياتها.

في الساعة الرابعة عصرًا كان البيت هادئًا ننتظر الغداء سمعنا نقر الباب فقمت أتطلع على من ينقر.

كان زوج علياء؛ لكن بحلة جديدة صابغا شعرة باللون الأسود ليبدو أكثر شبابًا، وفي يده أكياس سوداء تبدو بها فاكهة ويقول في راحة: كيف حالك يا ناصر؟

تسمرت وحملقت فيه وقلت لنفسي ما الذي أتى به ثم تداركت نفسي قائلًا:

– أنا بخير، ادخل.

دخل البيت وجلس وكانت علياء في انتظاره، بدأت تصرخ فيه: ما الذي أتى بك؟ هل تذكرت أن لك زوجة وابنًا؟ راح يطيب خاطرها لكنها وكزته قائلة: ابتعد عني، ودخلت غرفتها وهي تبكي لكن عبد الله ابنهما وقف كالتائه ينظر للجميع.

قال له أبوه: اقترب يا عبد الله أنا هنا يا حبيبي.

فاقترب منه بخطوات بطيئة ومترقبة ثم احتضنه أبوه بقوة.

كان كل من في البيت يضع أسئلة كثيرة عن سبب رجوعه.

جلس أبي بجانبه وقال:

– لا أعلم لماذا فعلت ذلك، كنت محترمًا وعندما جئت لخطبة ابنتي كنت جادًّا وواضحًا معنا، أما الآن فنحن لا نثق بك.

– أنا آسف على كل شيء، علياء زوجتي وأم ابني وأحببتها وما زلت أحبها من كل قلبي، أنا فعلت ذلك؛ لأنني تزوجت نعم تزوجت عليها.

قال أبي: ابنتي ليست لعبة وأعتقد أن ما بينكما قد انتهى، لماذا جئت إذًا؟

حاول لملمة الأمر لكن الأمر أشبه بزجاجة تهشمت، ثم قال: لأرى ابني وأطمئن عليه.

– حسنًا، لقد رأيت ابنك وهي لا تريد الكلام معك وأنا أيضًا، صدقني لولا أنك ضيف لما أعطيتك هذا القدر من الاحترام، ولا تنسَ الشروع في إجراءات الطلاق.

كان حديث أبي واضحًا له، إن زيارته ثقيلة علينا، أتفق مع كل كلمة قالها وإن كنت مكانه سأكون حازمًا، هذا الرجل لا يصلح أن يكون زوجًا.

– أتعلم كم مر منذ أن هجرت زوجتك؟

– نعم.

– صدقني يا ناصر لقد صرت إنسانًا آخر، لقد تبت إلى الله وصرت رجلًا مسؤولًا الآن، لدي زوجة وبنتان وتغيرت حياتي.

– وهل كل الذين يعرفون الله مثلك هكذا؟ أنت رجل أناني وصفيق تركت زوجتك وابنك دون سؤال، ماذا يقول "الشرع" هنا؟ أنت ناشز والناشز في الإسلام يؤدب.

قال بامتعاض: لا يحق لها تأديبي.

– لكن يحق للقضاء تأديبك وإن لم يؤدبك دينك نؤدبك نحن.

– احفظ أدبك، أنا هنا لأرى ابني فقط، أريد الجلوس مع ابني قليلًا.

– لا، طلبك مرفوض. ثم أنت اعتديت على أختي أتعلم ما حكم هذا في الإسلام؟

– أختك كانت لا تطيعني في الفراش.

– وهل هذه الأمور تتم بإجبار؟ تحمد الله أنني لم أرك وقتها لكنت قتلتك وأنت واقف، مع السلامة يا متدين يا بتاع ربنا.

ثم رحل في سخط، لو انتظر لبرهة لكنت ارتكبت جريمة، أتعجب من يرتكب الخطاء ويحتمي في الله، قد شوهوا الدين بأفعالهم، يتخذون الدين براحًا يفصلون بمقاس مناسب ثم يلبسون الملائم، كل هذا وعندما يراجعون أنفسهم تجد غصة الغباء ما زالت موجودة تتهيأ في عجرفة صعبة النزع، إنها شخصية الفرد وليس دينه، إنه طبعه المتسخ.

بينما أنا ذاهب مع أبي لرحلة شراء صنارة جديدة للصيد فتحت باب المنزل لأجد هذا "المغمور" كنت قد نسيت أمر هذا الفتى الذي يُدعي الشيكو، لم أضع في الحسبان أن يعاود الكرة ويبحث عن أختي، أتوقع منه أي شيء كأي فتى في شبابه الطائش من الجنون عنوانًا له، لاحظته يقف أمام المنزل ينظر للباب وكأنه ينتظر أحدًا، خطوت نحوه في ترقب كان سكرانا يقف غير متزن.

ناديته: شاكر شاكر ماذا تفعل هنا؟

قال بتلعثم: إسراء أنتظر إسراء، أين هي؟

كانت كلماته ثقيلة كالمشلول.

– صرخت فيه قائلًا: هل جننت؟

– اتركني، ثم وكزني بقوة وهو يبكي وعيناه حمراوان كأنهما ضربتا، وبدأ يصرخ إسراء أين أنتِ؟

انتبه في تلك اللحظة بعض المارة لنا وكانت وجوههم متسائلة وبدأت أختنق أقطف الصبر لأهدأ.

أمسكته من يده وسحبته بعيدًا عن البيت قبل أن يسوء الأمر.

– اسمع من الممكن أنا آخذك إلى قسم الشرطة الآن بهذه الحالة وسيتكفلون بك لكني لن أفعل ذلك اذهب.

ظل واقفًا يحدق بي بعين ثملة فما كان مني إلا أن صفعته على خده لكنه كان كالجماد متصلبًا.

أسندته إلى حمام المسجد ثم وضعت رأسه تحت صنبور المياه وأنا أقول له: استيقظ ارجع لوعيك أيها السكران، أفاق قليلًا وجلس متكئًا على عمود في المسجد لا يتحرك ويمسح الماء المتساقط من رأسه.

أحضرت مصحفًا وقلت له خذ هذا لعله يجعلك تنظر لأفعالك.

– لكنني أريدها.

بنظرة متضامنة قلت فكر مليًّا ربما ذلك ليس حقًّا شعورًا من قلبك، يبدو عليك أنك ابن ناس، لكنك تمثل دور الشاب الجامد الذي يريد

الحصول على ما يريد، ثم تغير ملمحي بنظرة احتقار، أنت ضعيف قل لي، كيف ستكون أسرة بذلك العقل كيف ستكفلها وتكفل نفسك؟

– سأفعل أي شيء.

الوقت معك مضيعة أتعلم أن رآك أبي ماذا كان سوف يفعل بك؟ إننا في مصيبة بالفعل وأنت المصيبة الأخرى، لكن هيهات لن أسمح لك بتعكير صفونا، حاول النهوض فأجلسته.

– أقرأ قليلًا في كتاب الله.

قلت مهددًا خالعًا ثوب الواعظ: أنا عرفت بيتك وسوف أذهب لأهلك لأعرفهم بأفعالك.

– لا، لا أرجوك، أعدك أنني لن أفعل شيئًا آخر، وأعدك في المرة القادمة إن جئت سوف آتي إنسانًا آخر.

– هذا لنفسك وليس لأختي، لأجل مستقبلك المبهم.

ثم تركته ورحلت.

عند رجوعي حدثتها لكن بعد ضربها على عينها لتنتفخ مثل البالون، عذرًا يا جمعيات حقوق المرأة إنها تستحق ذلك، ربما هذا الورم يجعلها تستفيق، تقنع نفسها.

– هذا الكلب كيف عرف البيت وكل هذا بسبب غبائك.

– أين بيت هذا الحيوان؟

تمتمت قائلة: لا أعلم.

ظهر أبي أمامنا ونظر إلى وجه أختي منصعقًا، ماذا حل بك؟ تكلمي.

قالت في تلعثم: إنها الأعراض النفسية هل نسيت أنها تسبب لي هذا الحالة؟

– لا أحد أقسم لك.

– ماذا يا أبي؟ ماذا فعلت بأختك؟

– لا شيء إنه المرض النفسي الذي يسبب لها أورامًا في أحيان، دعها وسترجع لطبيعتها مع الوقت.

– لكنها كدمة.

– لا أعلم ربما عليها التوجه للطبيب لكني لم ألمسها.

– حسنًا سأعرف كل شيء، خذي أختك واذهبي إلى الصيدلة للفحص.

ثم وجه كف يده نحوها قائلًا: سوف أعرف.

في نومي راحة لآلامي، الهروب من الواقع حل بالنسبة لي، أحيانًا العيش في الخيال هو وسيلة جادة لإنعاش الواقع وطريقة لمراجعة الحياة، أنا شاب صغير لا أجيد العيش سوى لإكمال نفسي وبناء أحلامي، وضعت رأسي على الوسادة ودخلت في النوم، انقلبت الرؤية للون الأسود ثم الأبيض مثل السحاب، كنت في مكان غير بيتي وأتكلم مع رجل لا أعرفه وكأنه فرد من أسرتي.

– فقط خد هذا سيداوي جرحك.

– لم أجب.

ثم أعطى لي هذا الرجل قليلًا من العسل الأسود في إناء.

ما سر وجود العسل الأسود؟ ولماذا أنا؟ لماذا أنا وحيد أنا وهو فقط؟ ثم رحلت خارج هذ المكان الذي كنت مرتاحًا به كثيرًا، انتهى الحلم واستيقظت بفاجعة لأجد أمي قد نقلوها إلى المشفى لأصابتها بجلطة في الساق، المصائب لا تأتي فرادًا هرعت إليها دون أن ألبس ما يليق، وجدت الأسرة كلها جالسة خارج غرفتها أختيّ الاثنتين كانتا تبكيان وعبد الله كان متبلد المشاعر كونه طفلًا لا يدرك، وأبي كان جالسًا يضع يديه حول رأسه ويتمتم بالدعاء، نظرت لشباك غرفتها وهي مستلقية كالنائمة في فمها خراطيم الأكسجين وجهاز نبض القلب يخبرنا بصحة قلبها، كان وجه أمي يشع نورًا غريبًا كملاك وكانت الغرفة بها أسرة

كثيرة عليها جميعها مرضى، بكيت أنا أيضًا ودعوت الله أن يمر الأمر وأن تستفيق وترجع البيت مرة ثانية بصحة جيدة، معافاة كان قلبي يتمزق كأن أنسجته تنفصل، كأنني ما زلت في حلم ولم أفق، أقول لنفسي أيعقل هذا أهذه أمي، أمي التي ربتني وخرجت من رحمها بين الحياة والموت.

جاء الطبيب ليخبر أبي أنها الآن تحت الملاحظة الطبية ومن الممكن أن تخرج خلال هذا الأسبوع.

– اذهبوا أنتم إلى البيت أنا سأبقى هنا.

قالت إسراء في حزن: لا يا أبي لم نترك أمي هنا أنا سأجلس حتى تفيق.

– لا تجادلي وارجعي لتنامي أنت وأختك، وأنت ارجع معهن.

– لكن يا أبي...

– اسمع الكلام.

ونفذت طلبه أو بالأحرى أمره، كان المشفى بعيدًا عن البيت، فاستقلينا سيارة أجرة، وعند نزولنا من العربة لاحظت شابًّا يتحرش بأختيَّ كان شابًّا ثمينًا في أصابعه الكثير من الخواتم كأنه يتاجر بها، ورأسه محددة بشفرة الموس على شكل زخارف، أثار الأمر غضبي فانفجرت فيه ككرة اللهب ووبخته بأقذر العبارات، حتى خرس كالأصم، تجمع الناس حولنا

وأكملوا مهمتي بالتوبيخ كانت عبارتهم، أنت لست رجلًا، أتغازل فتيات مثل إخوتك عيب عليك، ظهر من بينهم رجل عجوز في جلبابه شعره أبيض، قصير القامة وبدا في هيبة أصر على أنه، يأخذ هذا الشاب إلى منزله ليخبر عائلته كان ممسكًا به كالملقاط ولم يفلت منه الشاب وطاوعه، عند دخولي القرية أحسست أنني غريبًا كأن أمي هي من كانت تعطي الحياة للقرية، كان الناس خاملين، والحركة بينهم ثقيلة والهواء منعدم كأنه نفد.

في صباح اليوم التالي دخل أبي البيت متعبًا لا يقوي على الوقوف، كانت ملامحة باهتة ورائحته كحول كرائحة المشفى اجتمعنا وأذننا تود سماع شيء يسر، وقلوبنا تأمل الخير، قال لنا أن أنبوبة الأكسجين التي تستنشق منها أمي كانت فارغة والممرضة المسؤولة عنها اكتشفت ذلك بالصدفة، أبي اشتكى المسؤولين في المشفى الحكومي، الذين أكدوا له أنه خطأ غير مسؤول وسيتم فتح تحقيق في الواقعة، وعند سؤاله أحد الأطباء قال إنها كانت ستموت إن ظلت فتره طويلة بدون الأكسجين، هكذا مستشفيات الحكومة مخصصة للقتل، كانت أمي ستموت؛ بسبب الإهمال أما عن صحتها فإنها أفاقت وستخرج خلال أسبوع، أمر أبي إسراء وعلياء بالذهاب لأمي للاطمئنان عليها وتجهيزها للرجوع.

أتت لنا ممرضة على عجلة قائلة: نحن نريد حساب المصاريف.

رد أبي متعجبًا: حساب ماذا؟ لقد دفعنا الأموال التي طلبتموها.

– لا يا سيدي إنه حساب فقط ثلاثة أيام وهكذا مبرم في الإيصال.

قال أبي في يأس: لكن كل هذا ما لدينا.

سكتت قليلًا ثم قالت: هذا هو نظام المشفى.

تدخلت علياء: وماذا ستفعلون إن لم ندفع سترمون والدتنا في الشارع؟

– كانت تمضغ علكة بثقل نفس يوحى بأنها تعمل في ملهى والأمر يخص زبون لم يدفع، عفوًا يا أستاذة هذه مشفى محترم وهذا نظام موجود في جميع المشافي.

قالت إسراء: أنتم استغلاليون، حسبي الله ونعم الوكيل، المرأة ما زالت متعبة وأنت تتكلمين بنطاعة.

– أنا أقدر حالة "الحاجة" لكني عبدٌ مأمورٌ ومرت ستة أيام إلى الآن شاملة جميع الخدمات من أجهزة تنفس ورعاية و....

قاطعها أبي قائلًا: وما هو المبلغ؟

مدت يدها بورقة قائلة: ألف وخمسمائة جنيه.

تسمر أبي مكانه قائلًا: ومن أين آتي بهذا المبلغ؟ لقد دفعت مثلهم حينما انتقلت إلى هنا.

ثم اقترب منها قائلًا بصوت خافت:

– بالله عليك يا ابنتي ألا نستطيع تخفيض المبلغ؟

قالت علياء في ضيق:

– أبي هؤلاء ليس لديهم سوى الفلوس لا يهم المرض، لا يراعون الناس لا إله إلا الله، كأننا في غابة تعال معي.

تابعتها الممرضة التي تغيرت وكأنها فازت بجائزة، يقولون إن الممرضات ملائكة الرحمة، لكن ما رأيته ملاك يريد أن يخرج من ملكوت الله، إنه عملها أعلم لكن إن صبرت قليلًا إن أظهرت بعض التعاطف على وجها الغائص في معجون للطلاء لكان أجمل، كل يهمنا هو الاطمئنان على أمنا، تأخذ ما تشاء ولو أني أعرف أن ما دفعه أبي وأختي هو كل ما يملكان.

تعافت أمي تمامًا ورجعت إلى لبيت لكن تأثيرها قل، تنظيف البيت وتحضير الطعام بات أمرًا مستحيلًا عليها، قلت استجابتها معنا وصارت تتجنب النقاش والكلام، تعاني الاكتئاب، راح القليل من وزنها واختلف شكلها وصار كلامنا في الغالب عن أمرها المحزن، كنت أدعو الله في

صلاتي صلاح حالها وأن يعطيها الله الصحة وأن يمدها العمر الطويل، كنت أستغل الأوقات للجلوس بجوارها، كنت أتعمد المزاح معها كي يتحسن مزاجها، كنت أطيب خاطرها، أعلم أن الافتراق سيزرع بيننا في يوم من الأيام، وإن قصصنا ستنتهي لهذا سيتحتم علي أن أرث أوقاتًا جديدة معها، كيف لا أعرف سأدع القدر يفعل ما بوسعه.

***

كانت فكرة الرحيل والسفر خارج القرية تدور في رأسي ليلًا ونهارًا كلما أقبلت على الكلام تراجعت، كان علي اتخاذ القرار على أية حال بعد انتهاء الامتحانات وفي وقت العصر، كان أبي يحتسي الشاي ويتابع القناة الأولى، دون مقدمات:

– أبي أنا سوف أسافر.

– ماذا؟

– نعم مثلما سمعت لقد قررت السفر بعد أخذ شهادة الدبلوم.

انفتحت مشاعر الغضب وترك كتبًا كان يقرؤها ثم قال: أنا لا أود سماع سخافات، اذهب من أمامي.

– لقد خططت للسفر لمدينة شرم الشيخ والعمل في مجال آخر.

– والعربة؟

– تحدثت مع أحد البائعين في هذا الشأن قال لي أنه هناك العشرات يودون العمل على العربة وبمجرد ترك العمل تستطيع إحضار أي شخص مكانك.

– لكن هذا عملك وأكل عيشك لماذا تتركه للغريب؟

نظرت له مترجيًا: العمل هناك متعب كيف لي أن أحقق شيئًا في حياتي وأنا أعمل بائعًا للخضار؟ أود تطوير ذاتي، ماذا أكون في نظرك وأنا بائع للخضار.

تنهد أبي بقلة حيلة: وماذا ستعمل هناك في شرم الشيخ؟

– سأعمل في مجال السياحة سأذهب وأرى ما هي الوظائف المتاحة هناك، دعني أجرب.

– أنت كبرت وتعلم مصلحتك وأنا لا أستطيع مجابهتك افعل ما تشاء.

اقتربت منه وقبلت رأسه، حزنت عندما وجدته ضعيفًا، أول مرة أجد أبي ضعيفًا، أبي الشديد الذي يهز صوته البيت حيلته فاترة، وافقه منغلق.

– ناصر.

– نعم؟

– كيف ستخبر أمك بذلك؟

قلت له مبتسمًا: سأتدبر.

إلى الآن أنا غير مستوعب ما حدث، أبي يوافق على سفري خارج القرية وتركه هذه المعجزة، أمن الممكن أنه حلم؟! قرصت كتفي فتوجعت وضحكت فرحًا.

انقضت الامتحانات، امتحانات الصف الثالث الثانوي الصناعي وحصلت على الشهادة، مجموعي فاق الخمسة والثمانين بالمئة بنصف درجة، كان مجموعًا مريحًا كي أدخل معهد وتكملة دراستي العليا وهذا يطمئن إن فكرت في الرجوع للدراسة، عندما علم أبي الخبر بارك لي وأعطاني نقودًا وأمي احتضنتني بقوة حتى كاد أن يتمزق قفصي الصدري، وأطلقت وابلًا من الدعاء يكفيني لدخول الجنة، أما عن إخوتي فاكتفوا بالتهنئة، علقت الشهادة على الحائط لتكون ذكرى، ورحت أعمل على تمثال لي من الخشب يشبهني، وضعت صورة لي وبدأت بنسخ الملامح أخذت مني أسبوعًا تقريبًا من النحت، ثم وضعت التمثال بجانب الشهادة كان من الصعب تعليقه فثبته في برواز خشبي، كان يشبهني كأنه ناصر لكن بحجم القلم، والآن علي السفر.

الفصل الثاني

لم أستطع إخبار أمي أنني سأسافر، لم أتحمل النظر في عينيها وإخبارها؛ وهذا لضعفي بالتأكيد، اكتفيت بإخبار أختيَّ اللتين ستنقلان لها الخبر، تودد لهما لإخبارها بلطف وأن تواسياها إن حزنت، وإقناعها أن السفر في مصلحتي وتوجهت إلى محطة الأتوبيس وركبت أتوبيسًا ذاهبًا إلى مدينة شرم الشيخ، معي حقيبة بها أغراضي وملابسي، كانت المسافة كبيرة والطريق مرهق، رأيت لأول مرة قناة السويس التي حدثني عنها أبي وإن جده كان يعمل بها، السفن العملاقة المحملة بالبضائع كانت تمر وأصوات الأبواق، عند اقترابي كأنني خرجت إلى كوكب آخر جبال أطولها يصل للسماء وبحر عجيب متلون كالنجوم، وصخر على جانبي الطريق الذي يمشي فيه الأتوبيس وسط صحراء

قاحلة وشجرة الأكاسيا التي سألت عنها مسافرًا بجانبي علمت أنها شجرة من أيام الفراعنة وكان يطلق عليها شجرة إيزيس المقدسة، وفنادق قيد النمو وبيوت قليلة كأنها بقعة أرضية قد اكتشفت للتو، ولافتة كبيرة مكتوب عليها مرحبًا بكم في شرم الشيخ مترجمة بالإنجليزية.

عند أول فندق دخلت لأسأل على وظائف متاحة كان فندقًا كبيرًا به شاطئ واسمه اللؤلؤة بابه ضخم ينقسم لنصفين يفتح كقصور الملوك، قادني حارس الأمن بزيه السماوي إلى موظف مسؤول عن التوظيف.

كان شابًّا صغيرًا يرتدي بذلة جالسًا أمامه مكتب صغير في غرفة بمفرده.

– تفضل.

ألقيت التحية ثم قلت وأنا أمسح عرقي بمنديل، أنا أبحث عن عمل هنا في الفندق وأتيت من أسوان للعمل هنا.

قال بتعجب أسوان مدينة جميلة خذ نفسك، ماذا تشرب؟

– حسنًا شاي.

رفع سماعة الهاتف وقال بطريقة جادة اتنين شاي يا محمد.

– أنا ثروت وأنت؟

– اسمي ناصر.

– أهلًا وسهلًا يا ناصر، لدينا وظائف في المطبخ وفي المطعم والشاطئ، وفي الفندق ما مؤهلك؟

– دبلوم صناعي ثم اقتربت منه وكأنني سأخبره سرًّا، أي وظيفة قد أكسب منها أكثر؟

أرتاح على كرسيه ممسكًا بقلمه وهو يلفه ثم قال:

– لأكن صريحًا معك الأمر متعلق ببعض الأمور؛ مثل شكلك ومؤهلك ومهارتك ولغتك، إذا كنت تمتلك لغة أخرى وأنت أسمر جميل اللون وهذا خلق الله لا اعتراض في ذلك، لكن المجال السياحي يعطي الأولوية لأصحاب البشرة الفاتحة في التعامل مع السياح ولهذا سيكون عليّ وضعك في المطبخ يا ناصر، لا تقلق العمل هناك هادئ، زد أيضًا المؤهل هل تتحدث الإنجليزية أو أي لغة؟

عضيت شفتي السفلي قائلًا:

– لا، هذا نتاج الفقر.

– ماذا تقول؟

لا، لا شيء، حسنًا شكرًا لك على التوضيح.

– ما رأيك؟

– العمل ليس عيبًا، لكن سآتي لك غدًا وسأبحث إن كانت لي فرص أفضل.

حدق بي قائلًا: "ناصر" إن كنت ستبحث عن عمل في شرم الشيخ لن تجد أكثر من الفنادق، وإن ذهبت إلى فنادق مجاورة أو حتى في مناطق بعيدة سيقولون لك ما قلته.

لم أهتم بما قاله لكن هناك شيء، في داخلي يقول لي أن كلامه صحيح.

بحثت في كافة الفنادق والمحلات وجميع الأماكن التي تريد شبابًا للعمل، نمت في الشارع في جنينة خضراء كان العمل في الفنادق هو الوحيد الذي يوفر سكنًا بجانب العمل، والعروض الأخرى التي تلقيتها في الفنادق لم تسرِ في عقلي منهم من يقول خمسمائة جنيه راتبًا وآخر يقول أعمل تحت التدريب دون مقابل ينقص أن ينكحني، ومنهم من يتحدث بلكنة مغرورة وكأنه يمتلك عبيدًا في سوق للرق، وآخرون لا يريدون أحدًا، في الساعة الحادية عشرة ظهرًا في شمس شرم الشيخ الحارقة، تراجعت قدماي إلى الفندق الأول، فندق اللؤلؤة كان الموظف الودود ليس موجودًا، فاستقبلني موظف آخر لا أعلم عنه شيئًا لكنه كان مرحبًا أيضًا، كان سمينًا أبيض البشرة كملامح أهل الشام ورائحة عطر قوي في بذلة سوداء وتهبط من رقبته رابطة عنق.

– لقد جئت هنا منذ يومين للبحث عن عمل وكان هنالك موظف آخر اسمه ثروت.

– نعم، ثروت عرض علي العمل في أماكن مختلفة في الفندق.

قال: ثقة المطبخ هذا هو المكان المتاح حاليًا والراتب ١٥٠٠ جنيه قابلة للزيادة كل عام وأنت ومهاراتك.

– ما هي طبيعة العمل؟

– مساعد طباخ تساعده في تحضير الوجبات، الشيف خيري رجل طيب سيساعدك.

– حسنًا هل أستطيع التقدم للوظيفة؟

نعم بالطبع، كل ما نحتاجه المؤهل الدراسي وشهادة ميلاد.

كان معي ملف به أوراقي الشخصية وفيش جنائي قد جهزته بعد الوقوف في طابور بالساعات، أعطيته الملف واحتفظ به ثم قال لي تعال معي فسرت وراءه ودخلنا مطبخ كبير المساحة، أفران موقدة تخرج منها رائحة الطعام، وطهاة في رداء أبيض يحملون قبعات بيضاء، وحرارة مرتفعة كأنني دخلت جهنم حينما دخلت خلف هذا الموظف الذي نسيت

إخباره باسمي، حدق بي كل من في المطبخ، كنت لا أفهم نظراتهم كأنهم رؤوا حيوانًا على شفا الانقراض.

– هذا هو الشيف خيري الذي ستعمل معه، قالها بعد أن أخذ نفسًا قصيرًا وكأنه يقف مرغمًا.

كان رجلًا عجوزًا يتخطى السبعين زنقة صغيرة بيضاء، لديه كرش نصف متر تقريبًا، إعاقة في القدم اليسرى هذا ما لاحظته.

مد يده وصافحني بابتسامة قائلًا: تشبه أحمد الكاس لاعب الأهلي.

– ابتسمت قائلًا: نعم أعرفه، لكنها كانت ابتسامة كاذبة أنا لا أعرف من هذا الرجل الذي يتحدث عنه لكن ما أعرفه أنه يجب التلون، كي آكل العيش.

هذا الكلام لا ينفع هنا، المطبخ منقسم لفريقين الأهلي والزمالك.

– حسنًا يا كاس.

– اسمي ناصر يا سيدي.

وضع يده السمينة على كتفي الخافت وصاح في المطبخ قائلًا: يا شباب لدينا رجل جديد سيعمل معنا هنا، تعالوا ورحبوا.

أقبل عليّ كل من في المطبخ ليصافحني ويعرف نفسه، كانوا مرحبين وطبين القلب.

أخذني الموظف إلى مبنى آخر يسمونه مبنى العاملين بعد المشي في طرقات الفندق كان هناك سائحون شعرهم أصفر وأعينهم ملونة مثلما أشاهدهم في الأفلام الأجنبية يمشون لا أعلم وجهتم، وكزني الموظف قائلًا: عينك.

– تعجبت قائلًا: مال عيني؟

– أقصد عينك على السياح، دعك منهم ولا تحاول التغزل بأحد؛ أرواحهم في أنوفهم ومن الممكن أن يسببوا لك المشاكل هنا.

– أنا أتيت لأعمل وليس لأي شيء آخر صدقني.

كانت الغرف تشبه زنازين السجن حينما دخلنا كان الهواء منعدمًا والغرفة قاتمة مراوح معلقة على الأسقف وأسِرَّة بطابقين يعلوها شباب يرتدي فانيلات بيضاء.

– أين مينا؟ قالها الموظف مناديًا المتواجدين.

رد أحد الشباب المتكئين على سرير في الحمام دقيقة وسيكون هنا.

حضر مينا الذي كان عاريًا من فوق، كان قصير القامة نحيلًا مثل غصن الشجر.

قال: متى سيزيد الراتب؟ لقد زادت مصاريفنا وأود تجهيز نفسي أريد الزواج.

تابع الموظف غير مكترث: هذا ناصر سيكون معكم من اليوم، أخبره عن النظام هنا.

تطلع إليّ في نظرة متأنية قائلًا بصوت أجش: لا مشكلة نورت.

قال الموظف:

– غدًا ستدخل المطبخ لتباشر العمل ميعادنا الساعة السابعة.

– ممنوع النزول من الغرفة بعد انتهاء العمل، ممنوع التكلم مع السياح حتى لو كنت تتقن كافة اللغات إلا إذا أشار أحدهم إليك، والمكان هنا غير مسؤول عن أي متعلقات تضيع منك.

تساءلت في صدمة: ماذا؟

– نعم مثلما سمعت أمن على أشيائك.

– أنت هنا من المطبخ للسكن ومن السكن للمطبخ، وهذا سريرك ستنام في الأعلى وأنا هنا ثم أومأ بإصبعه على فراشه، الجميع هنا يستيقظ

الساعة السادسة تقريبًا، احرص على الاستيقاظ في ذلك الميعاد؛ لأنه موعد فتح الفندق للشاطئ.

كانت الساعة الثامنة مساءً، صعدت السرير وجربت النوم كنت أتحرك بجسدي يمينًا ويسارًا دون جدوى، لم يحنُ علي فنزلت من على السرير، كان هناك شباب يلعب الكوتشينة في ركن من الغرفة ألقيت السلام.

– وعليكم السلام.

قال أحدهم: لم تعرفنا عن نفسك.

فأخرجت ما في جعبتي من معلومات شخصية.

قال أحدهم بلكنة بدوية: يا مرحب يا مرحب.

ثم قال كل منهم اسمه، كان منهم من الريف والصعيد باحثين عن أمل آخر، شباب يطمع في العيش، ويلوون واقعة بالشقاء ليخرج لوحة من السعي، ثم أمسكت أوراق الكوتيشنة ولعبت معهم ولم أفز ولا مرة يبدو أن الحظ العسر سافر معي شرم الشيخ.

على صوت أمواج البحر صباحًا استيقظت منهكًا، جسدي كأنه تحطم كالزجاج، تزحزحت من فوق السرير بصعوبة ثم نظرت لساعة الحائط،

تبًّا إنها الساعة الثامنة دعوت الله كي لا يلاحظ الشيف خيري، كان المطبخ فارغًا من العاملين كنت أحسبه ممتلئًا ويعج بالعمل، كان الطباخ خيري مختفيًا بلا أثر سألت عنه العاملين، قال إنه يحضر في الساعة التاسعة وعندما حضر كان ما زال ناعسًا يفرك عينه عندما دخل المطبخ، سخر منه العاملون، ماذا بك يا عم خيري؟ هل أنت نائم على نفسك؟ كم واحدة سهرت معها البارحة يا عجوز؟

ليرد الآخر ضاحكًا: كم واحدة ماذا؟ إنه ينام نومًا متقطعًا، كان هذا صباحًا تعجبت من الطاقة التي لديهم للمزاح في ذلك الوقت، فأنا منذ استيقاظي أشمئز من ملابسي حتى.

أدخل يده في دولاب وأخرج ملابس وقال لي غير ثيابك لأنفذ ما طلب وأرجع له وهو يشعل الفرن.

هذا الفرن خاص بالبيتزا ومهمتك وضعها في الفرن وعينك معي وأنا أجهز كل نوع، الآن لا يوجد شغل ستجهز المكونات بمجرد رؤيتي للطماطم تذكرت العمل على العربة وابتسمت فلاحظ ذلك قائلًا: ما سر الابتسامة؟

– لا، لا شيء، أنا كنت أعمل بائعًا للخضار.

يبدو أنه وراءك حكايات أيها الفتى، ستخبرني إياها لاحقًا أما الآن...

ثم أحضر باقي المكونات وأعطاني ورقة بها طريقة تحضير البيتزا والمقادير بالجرام وقال عليك بحفظها جيدًا.

كانت وظيفة طاهي البيتزا أمرًا ميسرًا، رغم طول وقت العمل وحرارة المطبخ والشقاء واقفًا أعد الدقائق وأتطلع للساعة كل آن، إلا أن اليوم كان يسير جيدًا فحفظت أنواعها وأتقنت صنعتها، وكانت أكثر طلبًا عن باقي الأطعمة، فكان يخرج في اليوم أكثر من مائتين من البيتزا الساخنة التي يتصاعد منها الدخان، ويشيد بي الشيف خيري الذي كان يعاملني بحسن، كنت أعد لي بيتزا خاصة لألتهمها في ساعة الاستراحة، وأفعل ذلك بالمثل لبعض الإداريين في الفندق، مر شهر وحمدت الله وقلت داعيًا إن كان لي في هذا العمل خيرًا فثبتني وإن كان لي فيه شرًّا فاعفني.

***

في روحانيات الله كان ملجئي، فأنا بعيد عن أسرتي وبيتي ومن كنت أحتمي فيه كانت صلاة الجمعة وسيلتي للتقرب للخالق ومعبرًا للصفاء الداخلي، اتفقت مع إدارة الفندق والشيف خيري على الذهاب للصلاة في ذلك اليوم، كان هناك مسجد قريبٌ من الفندق يتجمع به عمال الفنادق المجاورة وقت الصلاة، كان يبدو عليه صرف الأموال، كنت ألاحظ "خطبة" تتكرر عن الأخلاق والعمل الصالح وأخلاق المسلمين

تكررت هذه الخطبة خمسة جمعات متتالية، نفس النص بنفس الأسلوب، لم أعلم السر حتى سألت رجلًا يصلي معي في مرة، قال إن هذا بسبب حالات التحرش التي تحدث في الفنادق منذ خمسة أشهر حدث أن أحد العمال اعتدى جنسيًّا على سائحة ألمانية، كانت هذه السائحة طفلة لم تتجاوز الرابعة عشر وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، تم تسريح عمال كثر وتغلغل أفراد الشرطة في عمل الفنادق وتباين التأمين الذي كان مخيفًا. كانوا يفتشوننا كل يوم ويأخذون جرعات من الدماء لتحليلها للكشف عن متعاطي المخدرات الذي يتم فصلة فورًا، أتذكر ذلك اليوم كانت الشرطة تملأ الشوارع والكمائن تنصب في كل الزوايا، لهذا يتكرر موضوع الأخلاق والعمل الصالح في كل خطبة منذ الحادث، بعد الصلاة أرجع لعملي خاليًا من الهم قليلًا، غسل قلبي من الذنوب.

– ما هذا يا صديقي؟ قلتها متعجبًا من شكله، وشكله المستطيل كأن لونه أسود يخرج منه رأس كغطاء القلم.

– هذا هاتف جديد.

– أرني إياه.

فالتقطه وتفحصت مفاتيحه أدوس على أرقامه التي تضيء ورنات متقطعة تخرج حينما أضغط عليها، كان يشبه جهاز الأتاري الذي كنت ألعب به، لكن بشاشة صغيرة كنت لا أعرف به شيئًا لكن استخدامه بلا جهد.

قال العامل: أنت في 2004 ولا تعلم ما هذا؟

قلت مبتسمًا: يبدو أنني أعيش في القرون الوسطى لكن على أية حال كم سعره؟

– هذا بمائة جنيه هو أحدث نوع موجود في السوق نوكيا.

كانت هذه أول لمسة لهذا المجسم البلاستيكي الذي على ما يبدو سيحدث ثورة في التواصل بين الناس، اشتريت لنفسي هذا الهاتف ولوالدي واحد كي أطمئن عليهم من حين لآخر، وأوفر التفكير فيهم للتواصل معهم بتكة زر، انتشر هذا الجهاز في البلاد والدول كالفيروس وصارت له أشكال وأنواع وألوان، علمت أنه يصنع في اليابان وأمريكا مستحوذة على تجارة وصناعة الهواتف في العالم، كانت أداة غيرت فهم الناس لبعضها جعلتهم متقاربين حتى لو كانوا يبعدون عن بعضهم لأميال، فكنت أحمله معي كل الأوقات، كنت فرحًا كوني أمتلك هذا الشيء، لا أعلم سبب فرحي لكن ذكرني هذا الهاتف عندما كنت طفلًا كنت أصنع شيئًا مماثلًا من علب الفول الفولاذية وأربطها بخيط طويل وأجعل مروان صديقي يقف على مسافة بعيدة ونسمع أصوات بعضنا

ونحن مغشي علينا من الضحك، لكن الآن صارت علبة الفولاذ بلاستيكية بها معقدات إلكترونية ذات جودة أعلى وصرت لا ألعب بل أشقى.

منذ عملي كمساعد طباخ لم أحتك بأحد، كان تعاملًا راقيًا منمقًا وعلمني الالتزام التحضر في الحديث، كونت صداقات عديدة اندمجت بسرعة كالزبد في العجين، لكن لم يستمر الأمر طويلًا كان هناك عامل يدعى رؤوف هذا الأحمق كان يعاملني مثلما يعامل اليهود الفلسطينيين، ناهيكم عن الإهانة كنت أتغاضى كوني جديدًا ولا أريد خسارة وظيفتي، كنت أذهب لأشكو ولا يستجيب أحد، فكانت خطتي هي الصمت، كنت في يوم انتهيت من العمل وذاهب للغرفة فتعمد إيذائي وسكب الزيت المغلي على رجلي، غطى الزيت الأصابع لتعلو آهاتي وأنا أصرخ، كان الألم لا يحتمل وأنسلخ جلدي من سخونة الزيت، أسرع أحد العمال بسكب المياه لتخفيف الوجع، لكن لم أرتح حتى جاء ممرض لا أعلم من أين وأجلسوني على كرسي في المطبخ وقام بدهن مكان الحرق وربطها بقماشة.

عليك الراحة ليومين ولا تتحرك كثيرًا.

كنت لا أنظر للرجل بل أحدق ببغض في وجه رؤوف وأتأوه.

– لماذا فعلت ذلك؟

انقلب وجهه وتطلع الجميع نحوه ثم قال في ارتباك: فعلت ماذا؟ أنا لم أقصد.

قلت في غضب: لا أنت تقصد، أنت تتربص بي منذ أن عملت هنا.

صمت ولم يتفوه.

برزت أصوات تقول استهدوا بالله يا جماعة وآخرى تطالبنا بالصلاة على النبي.

قال المسؤول عن المطبخ: لا تكبر الموضوع هذا الأمر يحدث كثيرًا في المطبخ.

جاء الشيف خيري وحملني بين ذراعيه مثلما يحمل الأب ابنه، كان عجوزًا لكن ذو بنيان قوي وأوصلني الغرفة.

أنا دموعي قريبة نعم، انهالت عندما نظرت لحالي البائسة، عدم مقدرتي على الحركة جعلني متذمرًا.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى أعلى قامة رجل يرتدي بذلة سوداء، ونظارة سوداء، وشعره طويل منتهٍ بذيل مثل ذيل الحصان، يتكئ على كرسي من الجلد يدخن سيجارًا فاخرًا.

– سيدي.

– من أنت؟

قلت بنبرة غير معتادة: أنا ناصر أعمل معك أريدك فقط أن تسمعني.

قال بعد وضع السيجار على مطفأته: قبل أن تحكي قل لي كيف عرفت أنني صاحب الفندق؟

– لا أحد، كل ما في الأمر أنني...

– أنك ماذا؟

– كنت قلقًا في ذلك الوقت لكن كان علي أن أبوح بكل شيء، لقد تتبعتك حتى وصلت إلى المكتب هنا. منذ ثلاثة أيام كنت في المطبخ هناك شخص يترصدني.

– رؤوف؟

تعجبت قائلًا: حضرتك تعرفه؟

– توقعت منك ذلك لكن أيًّا كان ما حدث لك سأتولى الأمر.

رفع سماعة الهاتف وكلم أحدًا هاتفيًّا قال بعبارة واحدة: احضر لي رؤوف.

ثم وضعها بحذق معبرًا: لقد طفح الكيل.

وعندما حضر ومعه شخص آخر ربما الرجل الذي تحدث معه على الهاتف لا أعلم. كانت ملامح رؤوف متغيرة كأنه قط مبتل في شتاء استوائي، ربما خطة لنيل الاستعطاف.

– لقد ضربت شخصًا قبل ذلك والآن ماذا فعلت؟

– والله لم أقصد يا أستاذ مينا إنه فقط حادث عابر.

قال بسخط: اسمع، أنا أقرأ الناس مثلما أقرأ الكتب، دون أن ينطق علمت أنك افتعلت شيئًا.

قلت متوجعًا ويترقرق الدمع: احرق قدمي ويدعي أن هذا بلا قصد.

أشار لي قائلًا: اذهب أنت وانتظر يا رؤوف سنتحدث قليلًا.

أثناء تحركي وضع موظف مكتبة نقودًا في جيبي حاشرًا إياها كلفافة قائلًا: هذا لك من الأستاذ مينا لا تحزن.

***

تعلمت المأكولات العالمية الشهيرة مثل السوشي والدانجو والباستا الإيطالية، وغيرها وصرت ماهرًا في إعدادها حتى أنني كنت سأترقى في الوظيفة لكن الرياح تسير بما لا تشتهي السفن، وأنا سفينة عملاقة تود اجتياح كل بقاع العالم، من هذا الجانب أنا متفوق، لكن في التعامل

صارت المشدات الكلامية مثل مقذوفات الصواريخ تهطل بغزارة، فكنت أسمع مصطلحات عنصرية من بعض المتعجرفين، ومع كثرة الضغط الذي أتعرض إليه حطم نفسي كان دخولي المطبخ يحمل معه الاشمئزاز والضيق والدعاء ليمر اليوم مرور الكرام، فكرت في الانتقال لوظيفة أخرى داخل الفندق.

كنت خائفًا من التوجه لمكتب المسؤول عن التعيين، لا أعلم ماذا سأقول وطرحت علي أسئلة كثيرة، هل سيقبلون الأمر أم سأُرفض وأطرد خارج المكتب؟ هل هناك وظائف أخرى في الفندق؟ هل سيتقبل الموظف الفكرة؟ لكن تحليت بالشجاعة وأخذت نفسًا عميقًا واستجمعت قواي كمحاربي النينجا ثم...

طرقت باب غرفة التعين.

– ادخل.

كان صوت ثروت الذي كان يتابع عمله.

– خير يا ناصر هل هناك شيء؟

تنهد قائلًا: نعم هناك، هل يوجد عمل آخر في الفندق غير الذي في المطبخ؟

وضع قبضة يده على أنفه كأنه يفكر، في الحقيقة يوجد وظائف كثيرة لكن كما قلت لك هذا يعتمد على المؤهل والشكل وغيره، لكن لماذا تريد ترك العمل؟

صار الأمر لا يطاق هذا السخيف الذي يدعى رؤوف يتكلم علي من وراء ظهري ويطعن في سمعتي، لا أعلم ما السبب وكأني آكل أكله.

وهل تريد ترك العمل من أجل هذا الشخص؟ أنت هكذا تحقق مبتغاه، ثم إنك بالفعل شكوت والرجل انضبت وأصبح محترمًا أكثر.

في الحقيقة هناك سبب آخر، سمعت من أحد العاملين أن الفندق يحتاج إلى غواصين وأنا طامع في الأمر.

كان يضع طرف القلم بين أسنانه ويهز كرسيه، أممم هذه الوظيفة تحتاج إلى اختبارات للقبول غير أن موعدها لم يحن، لكن وعدًا مني حينما تحين سآتي إليك. هناك شيء آخر في غاية الأهمية، اللغة عليك تعلم اللغة الإنجليزية للتعامل مع السائحين، أنت تعمل مع الشيف خيري وهو يتكلم الإنجليزية والإيطالية قل له من الممكن أن يساعدك.

– سأحاول.

ركن نحوي بعد أن توقف عن هز كرسيه: ناصر لا تجعل أحدًا يستعلي عليك، وخذ مكانك بينهم بالحسنى، لم تمر سوى ستة أشهر، هناك

أناس يغادرون؛ بسبب المعاملة لكن إن كنت ذكيًّا اجعله هو يغادر من يلدغك عضه.

– الله غالب، أنا هنا ليس للعض كنت أعمل على عربة منذ عام تعلمت الكثير وكيف أن الناس أشكال وأنواع، لكن يبدو أنني ما زلت أتعلم من بداية الكتاب.

عند طلوع ضوء النهار في سكون الله والندى يتجول في الأرجاء ارتديت ملابس العمل وحذاء خفيف اشترطت الإدارة أن يكون لونه أسود، ثم راح جسدي نحو المطبخ في نشاط، كان هذا اليوم سأعمل فيه بمفردي يجب إعداد البيتزا فالشيف خيري مريض ويقيم في غرفته على مضجعه كونه يعاني من الحمى، كنت متوجسًا قليلًا؛ لأنها أول مرة أقود العمل بمفردي، كنت أعجن وأفرد العجين وأضع المكونات لإخراج بيتزا شهية، كنت أتحدث معها من كثرة الإمساك بها، وهي تعلم أن مصيرها الالتهام وتحولها إلى فضلات، لكن رغم ذلك تخرج من الفرن سعيدة، كنت أداعبها وأقول النكات لها ربما تظنون أن صناعة البيتزا أصابتني بالعته لكني أصبت بداء البيتزا فصرت أفهم لغتهم، البارحة تكلمت مع بيتزا بالمشروم قالت لي لماذا لا أصنع لها بنت صغيرة تربيها وتضعها جانبها حتى يفسدا؟ فأصبت بالذهول حتى البيتزا لديها غريزة الأمومة، لم ألتفت إليها وقدمتها للنادل الذي التهمها وهي تبكي وتصيح (أرجوك

لا أنقذوني) وبيتزا أخرى بالجبن قالت لي أنت إلهي وسأعبدك فاستغفرت الله وكدت أن أرميها في القمامة، ربما بعثت من الهند هم يعبدون أي شيء.

تعافى الشيف خيري ورجع للعمل، كان علي أن أشرح له أنني أريد الانتقال لعمل آخر داخل الفندق وفي نفس الوقت أطلب منه تعليمي الإنجليزية، لوهلة اقتنعت بتبجحي لكني عولت على طيبة الرجل، كنا نعمل في يوم معًا ويقف بجانبي دون مقدمات، كان الدقيق يغطينا ينفر من الملابس كالتراب عند الحركة.

قلت بنبرة ثقيلة وكأني ألقي بالكلام في الهواء: أريد ترك العمل.

قال بغير اكتراث: عظيم إلى أين ستذهب؟

– غواص.

دوت قهقهته في المطبخ قائلًا: يا بني وهل أنت تعلم الغوص؟

– نعم وبكل براعة.

– أنت تقول ذلك؛ لأنك تريد ترك العمل، العمل غواص ليس بهذه السهولة ثم أنني حسبتك تمزح.

– تركت ما في يدي من عجين: العمل هنا والمزاح أمر صعب، أنا أجيد السباحة وسأتكلم مع الإدارة هنا لنزول الشاطئ لتعلم الغوص.

أخرج البيتزا من الفرن واتكئ على حافة طاولة بمحاذاة الفرن في استراحة ثم قال: ستحتاج لتعلم الإنجليزية.

رغم مسايرتي في الكلام لاحظت استياءه.

– رمقته بابتسامة قائلًا: همتك معنا يا شيف خيري.

– سيتطلب وقتًا لا أعلم من أين سنأتي به لكن احضر معك غدًا كراسة وتعال أعلمك بعض الجمل.

قفزت كالبهلوان لا إراديًّا من الفرح.

هذا الرجل كان متقنًا للغة وكأنه مولود في لندن، يستعرض قدرته ومراودته للقواعد، كان الشيف خيري متعاونًا جدًّا رغم الإنهاك كان يكتب لي العبارات بيده الملطخة بالطحين ويتقاطر عرقة على الكراسة، أحفظ كلمات اللغة الإنجليزية بسهولة كنت أظن أن عقلي غبي لكن على غير العادة تعلمت عبارات مهمة في وقت قصير، كنا نفعل ذلك كل يوم وعندما أرجع للغرفة تمر عيني على الكراسة قبل النوم لتثبت البعض من الجمل وتختفي الأخرى، ويلتقط عقلي ما يحلو له، كان يخبرني عن ثقافة الشعوب الأوروبية وكيف ينظرون لبعضهم ويحكي لي عن معيشته

في إيطاليا وكيف ذهب إلى هناك في عمر السادسة عشر هاربًا على متن قارب مكتظ، قال إنه الخوف كان قد جفف عروقه وكاد قلبه يتوقف حتى وصل للشاطئ، وكان يتذكر دموع أمه المنهمرة عندما قرر الابتعاد، أتساءل أهذه هي الإنجليزية؟ وأجاوب نعم، غير التي كنت عرفتها في المدرسة وكأنهم كانوا يدرسون لي اللاتينية، ومع الأيام صرت أتفوه بعبارات غير متناسقة وأحيانًا لا تفهم، قال لي الشيف أنه علي الممارسة وأن تكون حواسي معبرًا للغة عن طريق السمع والنظر والتكلم والفهم وأن أحاط بكلماتها كالغيوم.

حل الهدوء بيني وبين رؤوف الملعون عرفت أن جدته قد ماتت للتو وتاب عليه الله من مشاكسة الناس، قال البعض أنه كان قريبًا جدًّا منها؛ لأنها من ربته حتى نمى شعر لحيته، ونعم التربية ربت جنًّا صغيرًا تائهًا في عالم البشر، لم أبالِ لكن كانت هناك غصة في خاطري تقول لي انتبه وكن مستيقظًا، وهذه الغصة كانت محقة.

تردد بين العاملين عبارة زنجي زنجي، كان أغلب من يعمل في المطبخ يناديني بهذه العبارة مع ابتسامة خبيثة لم أفهم معناها حتى علمت من الشيف خيري الذي تردد في شرح معناها.

إنها تطلق على السود وهذا لفظ عنصري شائع في الشعوب الغربية وأنا أجزم على عدم معرفتهم معناها.

سرعان ما غلت دمائي كالبركان ورحت أصرخ فيهم، لا تقولوا لي هكذا مرة أخرى يا أولاد الكلب أتسمعون؟ ثم أمسكت بالسكين ولوحت به قائلًا: من سيقول هذه الجملة سأقتله.

كنت في غيظ وأشم رائحة ذهولهم من فعلتي وسحب مني الشيف خيري السكين وهدأني.

– صرخت فيه قائلًا: لماذا تعطي الحق لهؤلاء الأوساخ بالمواصلة؟

صمت الجميع وانتبهوا لعملهم وتحولوا كالعبيد يعملون بالسخرة، بالتأكيد إنه ورؤوف هذا الأحمق الذي علمهم هذه الكلمة لقد كانوا يتعاملون معي باحترام، لا بد من وضع حد لهذا الأمر.

ما كان عليك فعل ذلك، لا تأخذ ما يقال لك على محمل الجد.

لقد تعرضت لكافة أنواع الكره هنا تارة قدمي وتارة بعض الشتائم والعنصرية القبيحة، ماذا هذا القرف؟

– آسف أنا أتأسف لك يا بني، أنت لا زلت صغيرًا الحياة أكبر من ذلك، لا زلت سترى، قم، قم وانجز عملك أمامنا عمل كثير.

قال مذيعًا: لا نريد مشاكل يا رجال، حركات الأطفال والذهاب للمسؤولين هذه مللنا منها حسنًا؟

– رد أحدهم أتفق معك يا شيف لا أحب تواجد المسؤولين هنا، يسحبون الهواء والمطبخ ليس كبيرًا.

– لكن يوجد عصافير يا محروس.

– نسكتهم هذه المرة يا شيف نسكتهم.

تهت في أيام العمل كالتائه في صحراء، كنت أنسى أن لي بيتًا وعائلة، انقطع اتصالي بهم وانشغلت، كنت أعمل في أيام الإجازة طمعًا في زيادة الراتب، أدركت مدى فظاعتي حينما أتت لي رسالة من أختي علياء تخبرني أن والدي متعب ويرقد بلا حركة، قطعت عملي مستقلًّا سيارة أجرة خاصة راجعًا إلى أسوان كنت طوال الطريق أدعو لشفاء أبي، أصوات بداخلي تقول أنه قد يكون آخر لقاء، شعرت باختلاف البشر بين أغنياء القرى السياحية الفاخرة وفقراء القرى القحطة، وبين ثقافة البيئة الحضرية وثقافة القرية الريفية، رائحة المواشي القذرة، ودخان القش وجلباب الرجال والنساء، والأراضي الزراعية، والترع الممتلئة بالنفايات، والأطفال الذين يلعبون في الطرق الضيقة، والاحتفالات بالأعياد الدينية، وبساطة الناس، كل هذا جعلني ألتقى أجواء مختلفة رغم معيشتي هنا منذ ولادتي، كان عملي خارج القرية أفقدني جزء من ذلك الشعور، دخلت على غرفته لأجده لحمًا على عظم مغطى باللحاف ويسعل، جئت أمسك بكف يده الذي صار نحيلًا كان الجميع

يجلس بجانبه علياء وإسراء، يرتدي جلبابًا أسود وأمي أيضًا صرخت فيهم قائلًا:

– اذهبوا واخلعوا هذا الرداء أبوكم بخير.

وقفوا في فزع خارجين من الغرفة.

– كيف حالك يا رجل يا طيب؟

نطق في صوت لاهث: الحمد لله.

– ستكون بخير وترجع أفضل مما سبق.

أردف: الحمد لله.

كان وجهه شاحبًا أصفر وينظر للسقف، كنت أحاول إجراء حوار معه لكنه كان يتمتم بكلمة الحمد لله الحمد لله.

قبلت يده الباردة وسألت الطبيب الذي كان جالسًا معنا بعد أن أخذته في ركن بعيد.

قلت في ارتباك: خير يا دكتور ما الأمر؟

– والدك يعاني من السرطان من الدرجة الرابعة ووظائفه الحيوية لا تستجيب.

قلت في حزن: لا حول ولا قوة إلا بالله وما العمل؟

– الأشعة الطبية تقول أن الورم انتشر في جسده كله ثم خفض رأسه في يأس قائلًا: والدك لن يعيش كثيرًا.

توقف كل شيء في هذه اللحظة كأن ملك الموت قادم ليقبض روحي، وتلعثمت كارهًا الأنفاس التي أتنفسها، تسمرت في مكاني شعورًا كأن سكينًا غرس في روحي، لماذا أبي؟ لم يفعل شيئًا ليموت هكذا، يا رب أبقه ليس لي غيره، يا رب إني راضٍ بحكمك ومتطلع إلى رحمتك وعفوك، حياة بلا أبي كيف! إنها كحياة الأموات، أول رمقة للدنيا كانت لأبي، كان شاهدًا على بلوغ أفقي حتى صرت مرتكزًا على رجليَّ، كان لازمًا كالمياه أرتوي منه الحكمة والصبر أكل هذا ينطفئ فجأة، كيف سأعيش؟

كنت أشتاق إلى غرفتي وتماثيل التي أعلاها التراب، وسماع الموسيقى على أنغام المطربة فيروز، والسهر على حواديت الراديو المرعبة، مرت عيناي على تفاصيلها باشتياق كأن الغرفة تعاتبني، أحسست بذلك كأنها كائن حي بمشاعر تطفو، غصت في نوم عميق، لم أنم بمثل هذه الراحة منذ أشهر لكن هذا لم يدم، صحوت على صوت صراخ يأتي من الخارج ارتفعت دقات قلبي خوفًا ورحت نحو الصراخ، أبي مات، انتهت حياته وأنهى حياتنا معه، انفجر إخوتي وأمي بالبكاء يلطمون على

وجوههم بهستيريا، شعرت بأن الدنيا تلف بي كالأرجوحة فذهبت إلى المطبخ أصنع كوب ماء بسكر لأحتسيه، لا شك أن الأمر قد أثر على ضغطي، أحضرت جهاز راديو وشغلت إذاعة القرآن الكريم وسط إقبال الجيران متسائلين في فزع عن ما جرى؟

صحت قائلًا: اصمتوا لا أريد صوتًا عالٍ هنا، هذا قضاء الله، كنت أداعب الألم لأخرج لهم تماسكي، لكني لم أقدر منهزمًا مثل الفريسة.

كان أبي دائمًا سندًا لي والآن اختفي، أصبحت هشًّا كعناقيد القطن بعد وفاته، صوته كان في أذني كالطنين، وشكله كان في عيني كالتخيل، لماذا هذه الحياة بهذه القسوة؟ لماذا يا الله لا تجعلنا بالقرب من أحبائنا حتى نموت؟ لماذا لا ينصاع لنا القدر مثلما ننصاع له؟ لماذا لا نختار مصيرنا ومصير غيرنا؟ هذه الأسئلة لا تسأل بل تظل أملًا وأمانيَ يستحيل منالها.

ومع هذه المآسي التي أعيش فيها كان لا بد من أخذ مشورة شيخ يعظني وينصحني، توجهت للمسجد الذي لا طالما كنت أصلي فيه مع أبي، كانت وجهتي للشيخ عبد الله هذا الشيخ الذي يعتني بالمسجد منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، ويقيم بالمصلين ويعطي دروسًا دينية ويحفظ الأطفال القرآن، كنت أنا أحد تلاميذه في يوم من الأيام، كان مقرفصًا

يتكئ على عمود دائري ويسبح بأصابعه، أسمع همهمته وأنا أقترب منه تطلَّع نحوي قائلًا في ابتسامة:

– أخيرًا جئت، أخيرًا تذكرتني.

صافحته باحتضان كان جسده ما زال به القوة رغم بلوغه السبعين ثم جلست أمامه.

أين كنت يا ولد؟ هل نسيت عمك الشيخ؟

والله يا عمي الشيخ أنا نسيت كل شيء تركت القرية وسافرت، رميت كل شيء خلفي وغرقت في الدوامة التي لا تنتهي، أتعلم إلى الآن لا أعلم من أنا؟ وماذا أريد؟ وهل الحياة تستحق كل تلك المعاناة؟

– أستغفر الله العظيم، لقد خلقنا الله يا ناصر كي نعبده ونعمر أرضه وإن كنت ترى أن هذه معاناة فهذا ليس إلا واحد في المائة من معاناة مريض بمرض خبيث، أعلم فقدان الأب شيء مؤلم لكن هذه هي سنة الله يا بني فلا تعترض وكلنا فانون، من منا سيعيش العمر كله.

لكن أنا لا أرى راحة، فقط التعب والشقاء.

– لقد قلت لك ماذا؟ خلقنا لنعبده ونعمر الأرض هذا فيه شقاء في الدنيا وراحة في الآخرة فمصيرنا إن عبدناه وابتعدنا عن المعاصي تعتقد ماذا سيكون مصيرنا؟

ماذا؟

قال: الجنة، إنها مصير المؤمنين بالله.

أعلم أن كلام الدين كالمسكن يستمر مفعوله ساعات لكن لا يدوم طويلًا ليس لحالتي البائسة وانشغالي دائمًا.

اقترب مني في ثقة: اسمع أنت مثل ابني الصغير إن احتجت أي شيء تعال.

– لا يا شيخ، أكثر الله من خيرك، أنا كنت أحتاج لكلامك هذا مثلما أحتاج الهواء، لقد قل إيماني مع هذا التلاهي وينفجر عقلي من كثرة التفكير في مستقبلي المبهم، ومع كلامك هذا اطمأننت قليلًا وفكرت إن لم تكن الجنة لأمثالي فلمن تكون؟ ليس غرورًا لكن شابًّا مثلي يعمل لعشر ساعات وأبوه توفي منذ أيام أيعقل أن أموت حالًا سيدخلني الله النار لأتعذب؟ وبعيدًا عن الآخرة هذه حياة ويجب أن تعاش لا مفر من ذلك.

وقف وأمسك كف يدي لأقف مثله وقال: هل صليت العصر؟

فرديت بحرج: لا.

وضع يده على كتفي: حسنًا، اذهب وتوضأ.

ارتحت كثيرًا بعد هذه المحادثة كان الشيخ عبد الله يبث طمأنينة لا أفهمها، كان ولا يزال ذاك الرجل شديد الاتصال بي وبأسرتي كان صديقًا لأبي ومعلمي؛ ولهذا كان مقصدي بعد تلك المحنة، كنت أشعر أحيانًا أنه رجل ذو كرامات حتى أنني كنت أسمع أن هناك أشخاص من قرى أخرى يأتون طالبين منه الدعاء لهم، وبعيدًا عن الملابس الملونة التي يرتديها واللون الأخضر الذي يعيشه والسبحة الطويلة ذات الألف حصاة، يقولون أيضًا أنه من نسل الرسول، لهذا يلقى عليه الضوء كأحد الفنانين المشهورين، أما أنا فأعتبره شخصًا عاديًّا ملتزمًا دينيًّا طيب القلب يهوى مساعدة الناس وقريب من أسرتي.

عدت لعملي بعد أسبوعين من تحضيرات الدفن، كانت ليالي بائسة يفترسها الحزن، النهار كان فيه أسود بلا ضوء، وشوارع القرية كانت في غم وألم، استقبلني الشيخ خيري في عناق حار وهو يقول البقاء لله، وتابعه ما لم أتوقعه رؤوف الذي قبل رأسي قائلًا: أنا آسف، حقك علي، كانت لفتة طيبة أشعرتني بالارتياح قليلًا.

واستمريت في دوامة العمل الذي صار ثقيلًا وجافًّا مثل التراب، في تلك الفترة أتقنت اللغة الإنجليزية التي كنت أمارسها حتى عندما كنت في

القرية منشغلًا بموت أبي وقال لي الشيف خيري أن بهذا المستوى فأنا مؤهل للتعامل مع السياح بشكل ملائم، وتوجهت بعد هذه الكلمات التحفيزية إلى مكتب شؤون العاملين لأجد ثروت كعادته جالسًا يتابع عمله.

– اعلم لماذا أنت هنا؟ اختبارات الغواصين؟

لم أتفوه بشيء.

– حسنًا معادنا يوم 3 يوليو الساعة السابعة صباحًا، احفظ ذلك الميعاد كاسمك، آه نسيت البقاء لله في وفاة والدك.

قلت في نظرة متوددة: شكرًا أتمنى وقوفك بجانبي في القبول للوظيفة؛ لأنها مهمة كثيرًا لأرتقي ماديًّا وأنت تعلم الحال، مات أبي ولم يترك لنا شيئًا.

– سوف نرى.

ظل التفكير في هذه المهمة وصار رأسي لا يفكر إلا فيه وضع أسئلته من أقصى اليمين إلى أقصي الشمال، لم يزوَ قلبي عن الأمر ثانية، ينتزع الأمل رجيًا، هل سأنجح في الاختبارات؟ هل سأكون بحالة جيدة إن كان الاختبار قاسيًا؟ هل سيبقى جسدي تحت الماء وقتًا طويلًا؟ لا أعلم لكني آمل بالنجاح.

"الغريب الدائم"

إنه العدم المخيف في عتمة قاحلة، يدق باب الحياة غير محذر بلا إسهاب، سيرته لا يأتي معها خير؛ فيخاف منه كل حي، مجهول كالغرباء ومسكون بالريبة، إنه الموت الذي حل وأخذ أبي مبتعدًا، لم يفارق عقلي موت أبي قل نومي وبت في أحلام اليقظة حائرًا، مفكرًا أتساءل مدى قرب هذا الغريب مني؟ ولماذا هو بهذا السوء؟ يفقدنا الأقربين ولا نعلم أين يرحلون إنه يغبش الجميع مثل السارق، لقد أراح الموت أبي، أنهكت جلسات علاج السرطان جسده هذا الدواء الكيميائي الذي يقطع الجسد مثل الجزارين، لم يتحمل عناء الدواء ونام هنيئًا بعد شهور من الآلام، يا ترى ما كينونة هذا الغريب مستقبلًا؟ هل سيكون مستشرٍ يعلم مقاصدنا أم سيشدو مبتعدًا؟

كان مينا يستمع إلى مغنٍّ يدعى جورج وسوف كان مدمنًا لتلك الأغاني حتى أنه كان يقلد صوته ويلحن بالخبط على أي شيء بجانبه.

قلت له وأنا أحدق في السقف: ما معنى الموت؟

فقال مينا الذي كان يستلقي في سرير تحتي مباشرة: ماذا تقول لا أسمعك؟ ثم أغلق الأغنية، أنا معك هل تنادني؟

– كنت أقول ما معنى الموت؟

نفخ في امتعاض، ما هذا التشاؤم يا عم ناصر؟ تريد التحدث عن الموت حسنًا، الموت هو الراحة من هذه الدنيا لكن إن كان موتك بلا هدف فيكون الأمر غبيًّا، مثلًا المحاربون يموتون من أجل غيرهم، والأبطال يفلعون ذلك، أتعلم عن المسيح؟

– نعم عيسى عليه السلام.

لقد ضحى المسيح من أجلنا ومات في سبيلنا "وَلكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا؛ لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا"، وأنا لا أجد في الأمر خوفًا؛ لأنه حتمي ولا مفر منه.

– وهل تفضل الموت مثل المسيح أم تموت في فراشك؟

– بالطبع في فراشي أتمزح؟

تعالت ضحكته الخشنة وأما أنا فابتسمت متحفظًا وسمعنا أحدًا يقول اخفضوا صوتكم قليلًا نريد النوم.

وتابعنا بصوت خافت.

قال مينا: الموت حقًّا قد يكون غير منصف وإن كان أخذ أباك فهو أخذ أخي الصغير في حادث سيارة، لقد مررت بنفس ما تمر به الآن إنه أمر صعب، كأنني فقدت جزءًا مني، جزءًا من ضلوعي.

– الله يرحمه، هل كان الصغير؟

نعم أخي الوحيد.

قال هذه الجملة في حزن وبعدها شغل أغنية كانت كلماتها عن الفراق.

***

يوم آخر مرير..

هل تود مضاجعة النساء هنا؟ الأجانب هنا يحبون المصريين وأنت أسمر مائل إلى السواد فيا محلاك يا صديقي.

ابتعد عني أيها الشيطان الأمر لا ينقصك، أبي توفي منذ أسابيع وأنت تتكلم عن الحرام وكأنه أمر عاديًّا؟

كنت أصنع البيتزا وبجانبي أحد من طاقم المطبخ كنت أجهل اسمه رغم أنه يتكلم معي كثيرًا مثل الببغاء نتكلم كي نتوه في الوقت ويمر.

– أنت قلت أسابيع إذا الأمر قد مر وأنت شاب ولديك احتياجات لمَ لا تلبيها؟

قلت في استياء: لا أريد تلبية احتياجاتي على حساب غضب الله، اذهب من جانبي.. أرجوك.

– حسنًا كما تريد لكن إن احتجت شيئًا أنا موجود واسمي بلبل تذكر هذا الاسم جيدًا؛ لأنه معروف أكثر من اسم مدير الفندق نفسه.

قطبت في ابتسامة وأقسم لكم عند سماع اسمه كدت أنفجر ضحكًا لكني تمالكت نفسي مظهرًا الوقار.

– ما حال هذا الشاب؟

قال الشيف خيري في استحياء: إنه عجلة.

– وما معنى ذلك؟

– إنه شاذ.

– يا ابن الـ...

– تريث، أنت ما زلت خارجًا من مشكلة، أوقد خط قطار الصعيد الآن وركز.

هذا الطائر يظن أن الأجانب يأتون إلى هنا قاطعين الآلاف من الأميال كي يحظوا بقضيب المصريين، يا له من فسل لا يعلم أنهم أول من يدرس الجنس في المدارس.

***

3 يوليو من عام 2004..

كنت مستعدًا لقطع أنفاسي تحت المياه، ارتقى الأدرينالين مع بداية اليوم كان علي التوجه لشاطئ الفندق ومن هناك سيأخذوننا إلى مكان ذي عمق، حزمت أمتعتي باهظة الثمن واتكلت على الله كنت أقرأ آية الكرسي والحقيبة على ضهري والشمس لا ترحم وواقفًا على رمال الشاطئ كنت أنتظر المنظمين الذين على ما يبدو تأخروا، لكن كان برفقتي شباب قد حضر للاختبار، البعض قال إنهم على وصول، نزلت المياه أسبح محاولًا التدريب كما كنت أفعل في الشهور الماضية، وحضر المنظمون أخيرًا، كان المنظمون ضباطًا في البحرية عاملونا مثلما يعامل الجنود، صوتهم عالٍ مثل البوق وبدأت الاختبار فحص السلامة وهذا من أهم الأشياء نقوم فيها باختبار معداتنا وأنبوبة الأكسجين، كان الأمر سهلًا؛ لأني تدربت عليه وغصنا لعشرات الأمتار وفي مناطق مختلفة كان الاختبار عن التعامل تحت الماء مع الأسماك والشعب وقدرة التحمل، امتد هذا الاختبار لساعات كنا ثمانية أشخص من مدن مختلفة شاب في مقتبل العمر يسعى ويجاهد.

أقبل إلي أحد المدربين يصافحني قال لي مبروك لقد نجحت في الاختبار عليك أن تأتي لنا المركز لتستلم الشهادة الخاصة بك سنخلص إجراءات حصولك على ترخيص الغوص من غرفة سياحة الغوص.

وجهت له الشكر وذهب مبتعدًا أقبل إلي بعض الشباب الذين لم ينجحوا في الاختبار يشكون صعوبة الغوص والتوقيت المختار، فوجهت لهم نصيحة التدريب ثم معاودة المحاولة.

إنه طريق طويل أصابني بالتبلد، أفقدني جزءً من حياتي لا وضوح في أحداثه والضباب غالب على أيامه، أكيد هو القدر وهذا حتمي فلا مفر حتى إن سافرت العالم كله وانتقلت بين البلدان ستكون مهما حدث في دائرة القدر، صدقوني أنا نفسي مشتت ككرة قدم في ملعب، وإن كنتم تشعرون أيها القراء الأعزاء أن قصتي لا تستحق المتابعة فجمع قواك في الأحداث ستجد نفسك ستقع أو وقعت في أي موقف من ذلك، وما زالت قصتي مستمرة عليك فقط اتباعي حتى لا تجد نفسك ملقى على رصيف تتحدث مع نفسك كالمجنون وتمارس مهنة التسول، وتصرف بعقلك الذي أراهن عليه في تخطي الأمور هذا أنا ناصر وليس الكاتب، أسمعك وأنت أيضًا، أتظنون أن هذا وحي الكاتب؟ بالطبع لا إنها قصتي، كل هذه الأحداث أحداثي فهو في النهاية مجرد كاتب، آآآه لقد انشغلنا بهذا السكندري، حسنًا البعض يتساءل لماذا نعيش ونجهد في حياة مصيرها الفناء؟ هذه الإجابة ستجدونها قبل نهاية حياتكم وأنتم بالطبع أرواح تقيمون مدى فائدة حياتكم، أما الآن فأرجوكم كفوا عن التساؤل؛ لأنه مدمر للعقل.

كان يقف يصنع البيتزا كعادته، أرى وجهه مكشرًا ويعمل برعونة، اقتربت منه واضعًا كفي على كتفه قائلًا:

– ما زلت تصنع البيتزا بمفردك هل تحتاج إلى مساعدة؟

– لماذا أنت هنا الآن؟

لقد جئت لأودعك، سوف أنتقل لمبنى قريب من الشاطئ.

التفت إلي بعد تركه قطة عجين كانت في يده.

– وهل معنى أنك ستنتقل إلى مبنى آخر أنك ستنسى عمك يا ولد؟

– لا أستطيع أن أنساك يومًا، لك الفضل علي بعد ربنا، لقد علمتني صنعتك ثم أومأت للعجين، زاد راتبي واستطعت الإنفاق على إخوتي وأمي.

انهمرت دموعي وقتها كالطفل هذا الرجل كنت أعمل معه شهورًا بحلو ومر الأيام، كان كأبي ولم يشعرني يومًا أنني غريب.

– إنك ذكي، ستنجح في هذا العمل لقد تطورت في العمل هنا بسرعة وكنت منبهرًا بك وأثرت إعجابي أيها الأسمر.

ابتسمت له قائلًا: حسنًا سأتركك مع هذا العجين الشقي.

غمز لي قائلًا: ستسبح مع الأجانب يا لك من محظوظ.

ضحكت ممسكًا بحقيبة بها أغراضي إلى وجهتي القادمة.

استقر العمل في الماء المالح بين الشعب المرجانية والأسماك الزاهية لعامين، أغطس يوميًّا ناسيًا اليابس، إنهم أروع عامين في حياتي، أتحدث بلغة مختلفة ومع أناس من كافة دول العالم كأني أطوف الكرة الأرضية، وأنا على الشاطئ كطائر يجوب بلاد الله باحثًا، تباين المال على جيبي كنت أقبض بالدولار أحيانًا، كانت الأمور جيدة إلى حد إرسال النقود لأختيَّ في أسوان، مخصصًا لهما مبلغًا ييسرون به معيشتهم، مع غنى الحال اشتريت شقة صغيرة في شرم الشيخ كلفتني كل ما معي، جهزت أثاثها وفرشتها من ما تيسر من نقودي، مع كل خطوة أخطوها كنت أحمد الله وأشكره عند سجودي، نال أبي رحمه الله مني نصيبًا مخرجًا زكاة على روحه الطاهرة، وعند انبساط الحال طالبتني أمي بالزواج هذا الأمر الذي يجعل مني أتوارى في ملابسي كالسلحفاة حقًّا، الموضوع ليس بهذه السهولة فأيامهم كانوا يتزوجون بقروش، تغير الزمن والحياة صارت صعبة لكن على ما يبدو أن أصحاب الشعر الأبيض لا يدركون ذلك، كنت أهرب حينما تذكر كلمة زواج، أشتت تفكيرها لتغير الموضوع عن نفسي أنا أحتاج حقًّا إلى امرأة تساعدني وتكون ملجأ لي وعونًا، أعلم أنه أي شخص من الممكن أن

يكون كذلك إنها الغريزة والجينات اللعينة، نحن نوعان مثل المغناطيس ينجذبان وإنا كان بينهما حاجز كالجبل، عرضت علي أختي علياء فتيات وأرسلت لي صورهن وقالت لي اختر واحدة وكأنها تعمل تاجرة جواري، لن أوافق بالطبع مصرًّا على أنه يجب أن أكمل حياتي مع شخص قد قطعت معه سنوات من الحب والمعاشرة، وها هي الأيام تمر قد أقع في الحب وأصاب بسهم كيوبيد.

أعينهم ضيقة متراجعة للخلف كخط مرسوم قصر القامة بشرتهم كلون القمح، لا يتوقفون عن الابتسامة ويتسمون بخلق ليس عند باقي البشر، كان فوجًا سياحيًّا جاء من الصين، كانوا شبابًا أعمارهم تتجاوز الأربعين تقريبًا لا تسألوا كيف فملامحهم بلا تجاعيد ظاهرة أو شعر في الوجه كبشرة للأطفال، انتقالًا إلى التعامل معهم فهؤلاء الناس ذو طيبة تجعلكم تحبونهم، من شرق العالم أتوا مدركين معنى الاستمتاع بالحياة.

– ناصر، ستقوم بمهمة الغوص اليوم معهم أنا متعب ولا أستطيع المواصلة، كان زميلي يوسف الذي يعمل معي منذ سنة.

– هل أنت بخير؟ لِم لا تذهب للطبيب؟

– لا أحب الأطباء أنت تعلم، سأكون بخير ربما هو التدخين.

– نعم، ارحم نفسك قليلًا.

فنغ ميان وهو مرشد المجموعة سيتحتم عليك التعامل معه هو الوحيد الذي يعرف الإنجليزية بينهم.

قد حسبته امرأة حينما رأيته للوهلة الأولى، عرفني هذا الرجل ذو الشعر الطويل والحلق على باقي الأفراد كانوا ستة، ثلاث نساء وثلاثة رجال من بينهم فنغ ميان.

كانت عليّ قيادتهم كقيادة كتيبة وغصنا في الوقت أكثر من الماء كانوا كثيري الأسئلة يريدون معرفة كل شيء كالأشبال.

قال فنغ ميان باللغة الإنجليزية: نريدك غدًا في مهمة أيضًا.

فظهر اليأس على وجهي وعبثت ثم توقف كل هذا بعدها عرفت المبلغ الذي سأحصل عليه وافقت بسرعة ضاحكًا أسلم على جميع الطاقم أحييهم بالإنجليزية والصينية منحنيًا كأننا في معبد بوذي.

عند الساعة الثالثة ليلًا أمامنا كأسان من الشاي نحتسيهما ببطء كان المقهى مطلًّا على البحر مباشرة بلا مخلوق يجلس على كرسي غيرنا، كان الجو باردًا فذهبت للسيارة للجوء لمعطفي وعدت، كان يوسف صديقي يسحب أنفاس دخان الشيشة ويسعل كعجوز.

– لماذا كل هذا العناء إن روحك تكاد أن تخرج وأنت تفعل هذا؟

– لا أحد يأخذ منها شيئًا كله ذاهب.

– لا لا إلا الله، أنت تقتل نفسك يا يوسف، لماذا يا صديقي؟ وإن لم يكن لك فكر في أولادك.

نظر لي باستياء قائلًا: ناصر أنا أتنزه معك لكي نقضي وقتًا ممتعًا كح كح، وليس لتنصحني مثل أبلة فضيلة.

تابعت احتساء الشاي غير مكترث لشيء وكلمت أمي على الهاتف اطمأننت عليها وعلى أختيّ كان صوتها ينذر بتعب لكنها كانت تتوارى، كان عقلي حينما يفكر بعيدًا لا يفكر بغير أمي فلهذا عاهدت نفسي على مكالمتها كنت أشتهي سماع صوتها المليء بالبركة وتلقي دعائها الكريم، مكالمات هاتفية بالساعات دون كل أو ملل، كم لو تمنيت أن أكون بجوارها أنام بين أحضانها مسترجعًا أيام، كانت أذني تؤلمني من البارحة تجمعت المياه فيها وأهملت الأمر، سألت يوسف قائلًا: هل لديك حل لمنع الماء من دخول أذني عند الغوص؟

– البذلة التي ترتديها تحميك المياه لكن مسألة دخول الماء حتمية لا مفر منها ولا أنصحك بسد أذنك بقطعة قطن أو أي شيء فقد يزيد هذا

الضغط على طبلة الأذن. لا حل سوى تنظيف أذنك عند الطبيب وتحرص على عدم دخول الماء لمنطقة الرأس.

بدت على يوسف الجدية في الحديث فجأة: قل لي يا ناصر، هل تحلم؟

– أممم نعم، لماذا؟

– هل تتذكر آخر حلم قد حلمته؟

– في الحقيقة لا، أنساها بسرعة. لقد حلمت حلمًا غريبًا من أيام أتذكر تفاصيله بدقة، كنت ذاهبًا في رحلة غوص إلى جزيرة فرعون أتممت معداتي أنا ومجموعة السائحين وبدأنا النزول وهبطنا لعمق عشرين مترًا تقريبًا ثم غرقت في النوم، كان البحر يشدني في هدوء لا سمك فقط ضوء طفيف يضيء العمق أحسست بالراحة الشديدة صعدوا جميعهم إلا أنا نمت هابطًا، لم أشعر بالخوف أنني سأكون وحيدًا بل كنت أبتسم للجميع وهم يصعدون وانتهى الحلم على هذا، صحوت هانئًا سعيدًا لا أعرف السبب.

– السبب هو أنك لم تغطِّ نفسك جيدًا.

قهقه يوسف قائلًا: يا ابن الكلب لن أحكي لك عن أحلامي ثانيًا، اذهب من هنا.

عينان زرقاوان وشعر أصفر كلون الذهب، وقوام مثالي كفرس نهر تحت شلال يتوهج ليست الأولى التي أراها هكذا لكنها كانت مختلفة عن ما رأيت، ولديها ابتسامة أصابتني بالجنون ووقعت في قلبي ولم أستطع التقاطها، ظللت في العمق كطفل عالق، امرأة خود بحق، إنجليزية تعيش في مصر كيف لا أعرف؟ لكنها الأجمل، رأيتها أول مرة في حمام السباحة تعلم الأطفال أعمارهم أم تتجاوز العاشرة تحتويهم كأم ولدتهم؟ تفعل هذا أيام من الأسابيع قد تورمت ساقي لأعرف تلك المعلومات، أخطط الآن للاقتراب منها أكثر لاعنًا الظروف والعادات والتقاليد، ضاربًا كل شيء عرض الحائط، ترى سيكون البساط مفرشًا أم سيكون كحصى حادة تجرح الأقدام؟ لقد أصبت بالحب يا ناصر ذاك المرض اللعين، لماذا أنت ضعيف المناعة هكذا؟ على أية حال إنه أجمل مرض قد يصيب الإنسان، أيًّا كانت الأعراض فأنا سأتأقلم وأمتنع عن العلاج.

في يوم من ربيع قد حل للتو كانت تمارس عملها مع الأطفال كنت أراقبها كعادتي من بعيد كصائد معه صنارة، كنت أتعجب من تحكمها في الأطفال كانوا ينفذون طلباتها بيسر وينصاعون بخفة طفل دون سابق إنذار كاد أن يغرق وصرخ بهرج في الماء متمتمًا بكلمات غير مفهومة، هرولت نحوه وأخرجته بسرعة كان الولد فاقدًا الوعي أشبه بجثة لا تتحرك انقلب المسبح لهرج وبدأت الأصوات تتعالى، وهرع الناس لنجدت الطفل وانهارت جميلتي في البكاء وهي تردد This is all because of

me، صار الطفل بعافية بعدها بلحظات وجهت لي الشكر وأنا أقف كالمسمار لا أتحرك، إنها لحظة أنتظرها من مدة وكأنني في الحياة من أجل بعض هذه الكلمات، كانت انفراجة أخيرًا تحدثنا حتى لو كانت ثوانٍ معدودة كافية لإزالة الاكتئاب وأي شيء قد يرهقني، كانت كحورية من حوريات الجنة تتلألأ كلؤلؤة ترغمك على الاطلاع بها، تهنا في الكلام دون معرفة أسامي بعضنا وحل السرحان كعاصفة غطت الوجدان كما تغطي الأرجاء، وأنتم ماذا تظنون؟ هل سيقف الحظ بجانبي أم سيكون كشاحنة معطلة في منتصف الطريق؟

عملت متطلعًا نحوها وبت أبحث عن دليلها، فأخذت أبحث عن أقرب الناس منها إنها صديقتها تدعى إليزابيث نعم على نفس اسم ملكة إنجلترا، نعم إنها إنجليزية أيضًا يا لكم من أذكياء من أين ستكون صديقتها المقربة؟ قطعًا ليست آسيوية، المهم توصلت إليها بعد بعض الاستجوابات الكثيفة بحذر محدقًا، وبرؤية معاون مباحث.

شابة لا يظهر عليها ملمح الأوربيين أفريقية الملمح وسمار ثقيل يعلوه شعر مجعد.

كانت تقف مع رجل يشبهها يتبادلان الثرثرة فهبطت عليهما: كيف حالك؟

التفت متطلعة: من؟

– أنا ناصر.

وهل أنا أسألك عن اسمك؟

أنا قبل أن تكمل رمقني الشاب الذي معها في ازدراء: ماذا حل بك أيها الأحمق؟

أردفت قائلة: مارك أرجوك دعنا نعرف ماهيته.

– لقد أتيت لأكلمك عن صديقتك ميلا إنني معجب بها ولقد رأيتها ومنذ ذلك الحين انكببت على وجهي كالدائخ آمل التقرب منها وصراحة أود معرفة الكثير عنها.

وكيف وصلت إلي يا روميو؟

– عن طريق عمال الفندق كان الأمر أشبه بتحقيق استقصائي لكن ها أنا الآن هنا أمامك.

تدخل صديقها الثائر بصياح وهل علموك السير وراء بنات الناس؟ اذهب من هنا وإلا سأنادي الأمن.

قلت ببرود: لماذا لا تتريس قليلًا يا فتى؟ لقد شتمتني وسكت وأنا لا أوجه كلامي لك.

– مارك أرجوك دعه.

– لكن يا إليزا...

– سأرى ما في جعبته، اسبقني للغرفة وسألحق بك.

– حسنًا إن احتجتِ شيئًا ناديني.

غادر حمدًا لله كان سيعقد الأمر برمته هذا الثور الهائج، يبدو أنهم في علاقة أو شيء من هذا القبيل كنت على وشك هدم معالمه ليكن مثل البناء المحطم.

– قل لي ماذا تريد بالضبط؟

أنا فقط أريد أن أعرف أكثر عن ميلا؛ أسرتها، عائلتها، والتقرب منها من خلالك وربما تساعديني في ذلك.

قالت غاضبة: لن أقول لك أي شيء عنها، ماذا تظنني؟؟ أتظن نفسك بهذه الكلمات العاطفية ستجرني إلى إفصاح شيء عن صديقتي؟ سأكلمها.

أوقفت يديّ أمامها مسترجيًا: لا، لا أنا أريد أن يكون الأمر سرًّا بيننا.

– ليس بيني وبين "ميلا" أسرار رفعت الهاتف ورنت مرة اثنان أو ثلاثة ردي أين أنت؟

– ربما تعمل.

– هل قابلتها؟

نعم لكن لم يكن بيننا حديث موقف حدث في الشاطئ وانتهى.

تركتني وذهبت لا أعلم هل الذي فعلته قد يحبط رجائي؟ هل يهشم مرادي؟ على أي حال سأرى.

بعد يوم عمل شاق أقدمنا أنا ويوسف الجلوس في أحد الأماكن الثمينة كوننا حشونا جيوبنا بالمال أخيرًا عند طرف آخر الشهر وقال لي بحماسة (سآخذك الآن إلى مكان أجوبة).

هززت رأسي بالموافقة قائلًا: بسخرية هل ستسافر إلى القمر أم ماذا؟

– شيئًا مثل ذلك.

كانت الإضاءات كثيفة تتلألأ وتتشقلب مثل تكون المجرات، الجدران من الصخر الصلب كأننا في كهف، الملابس منعدمة تتشفى وتقتصر على المناطق العورة، رغم ذلك العاملون متحفظون ببذلات، طاولات بها عواميد لامعة تتراقص فوقها نساء مائعات متأرجحات تتقاذف عليهن شهوات الحاضرين المنخدعين، ابتسامات وابتهالات من مغنٍّ ممسكًا بمايك عارضًا موهبته المتمنية.

ما هذا يا يوسف هل نحن في بيت دعارة؟

ابتسم بخبث قائلًا: لا هذا ديسكو.

– يا صديقي أنت تعلم أن أبي قد توفي وأنا...

– ششش اصمت أحضرتك هنا لتستمتع، وإن لم يعجبك الأمر سنغادر.

استقر جثماننا بطاولة يفترشها غطاء أبيض.

على أمعاء متململة رفع يوسف كأسًا من الخمر اسمه "التكيلة" كان قد قدمه النادل لنا.

– لم تأكل منذ الصباح وتشرب الخمر هكذا إنه يوم أسود من مشارفه.

– اشرب دعنا ننسى، هل تود القليل؟

– لا تسكر يا يوسف نريد أن نخرج من هنا مستيقظين بالله عليك.

بعد برهة تكشف وجه رجل صلعته كالبلورة ,وجهه مقوص كحدوة الحصان، كيف حالك؟ قالها بثقل وأرستقراطية.

صافحه يوسف بقبضة يده في مصافحة أول مرة أراها.

ومد يديه لي بالمثل لأقلده وجلس يتباحث من يوسف وأنا سارح محققًا بأروقة المكان، سرقتنا ربع ساعة على هذا الحال.

وكزني يوسف قائلًا: ما رأيك؟

– في ماذا؟

في الموضوع الذي كنا نتحدث فيه.

– لم أسمع شيئًا من الضوضاء.

أردف هذا الشاب الذي قال إنه اسمه منير: العمل في إسرائيل ما رأيك؟

قلت مستهزئًا: إسرائيل، ما هذه النكتة؟

أردف يوسف: نحن نتحدث جديًّا أنا أود العمل هناك يريدون غواصين في الشواطئ وينشئون فنادق ومدن حديثة تحتاج لشباب مثلنا.

– ما زلت تمزح؟

رد بلباقة رغم سكره: أنا لا أمزح يا ناصر أنا جاد.

قال الأصلع: عجيبة من منكم مخمور.

جحظت عينياي: أنا لست مخمورًا، أنتم الذين جننتم إسرائيل ماذا؟ هذه دولة معادية وتريدون العمل هنا؟ كنت أظن أنك تمزح لكن من الواضح أنكم تدبرون لمصيبة.

دق صمت قطعه يوسف.

تعلم أن الوضع صار متأزمًا المؤشرات كلها تحثنا على الرحيل.

– ارحل أنت وإذا كنت تفكر بجدية فكر ببلد آخر أرض الله واسعة.

وهل يحدث هذا فرق؟

بالطبع مصري يعمل في دولة إسرائيل فكر بها إنه انتحار يا صديقي، ليس مهمة للعمل ثم إننا هنا نكسب بالدولار أحيانًا والرزق من عند الله، لماذا التعب والسفر،والسفر إلى أين؟! إسرائيل ههه يا لكم من حمقى.

تابع الأصلع قائلًا بثقة، لكن الرواتب هناك الضعف تقريبًا!

– والله إذا كانت ملايين لماذا أعيش مهددًا قد يلاحقني الأمن يومًا ما؟ وأنت تعلم حساسية الأمر.

تشعثت وجوههم ببعض الحسرة ثم رحل الأصلع خائب الرجاء، علمت أنها ليست نيته بل نية يوسف، من المخزي حقًّا اللجوء لكسب لقمة العيش والارتجال بعيدًا عن وطنك كان عليه تسليم نفسه إلى الجهات الأمنية، أقوم من تلك الأفكار "الفسلة" كان عليهم إقناعي بذلك؛ لأن الأمر سيتم عندما يكتمل عدد ما ومن الواضح أن هذا العدد لم يكتمل.

سألته بلهفة: من أين تعرفه؟

إنني أعرفه منذ خمس سنوات، لقد كان يعمل محاسبًا فجأة صحوت أجده مديرًا ماليًّا لأحد الشركات المالية، وعندما استجوبته قال لي أن الشركة التي يعمل بها مالكها رجل يهودي.

– ولهذا؟

نعم ولهذا عرض علي العمل في إسرائيل والأمر حقيقة مغرٍ لأي شاب عندما تنظر إلى شاب مثله قفز يغريك الطموح.

– تبًّا لهذا الطموح.

كح كح.

لمست صدره قائلًا: هذا سوف يحاسبك في الآخرة أنت تقتل ببطء.

– آخر سيجارة.

عند الساعة الخامسة صباحًا بعد الفجر قبيل ظهور ضوء الشمس أيقظني مينا بفاجعة.

– ناصر ناصر استيقظ.

– ماذا ما الأمر؟

يوسف غرق وهو الآن في المستشفى!

ارتفعت دقات قلبي قائلًا: ماذا، ماذا تقول؟!

كما أقول لك الآن لقد هرعوا به إلى المستشفى، يقولون أنه أصاب بالإغماء أثناء رحلة غطس مع بعض السياح.

فارتديت ملابسي كعسكري لديه طابور صباحي وتأخر وتوجهت إليه وأنا أدعو الله باكيًا وأردد: حبيبي يا صاحبي ماذا الذي حدث ما الذي حدث؟!

عند وصولي كانت أسرته وبعض الأصدقاء المشتركين بيننا موجودين بعضهم يبكون والآخر في ذهول لا ينطق بكلمة عن رؤيته، شعرت أن روحي تنقبض وحلت غصة في حلقي كأن النفس سينقطع، كان مستلقٍ على ظهره كأنه نائم وبجانبه أخوه الصغير الذي كان ثابتًا بغرابة اقتربت منه والدموع ما زالت تنهمر وقبلته من رأسه وقلت:

– لقد تركتني يا أعز الناس لن أنسَاك أبدًا سأدعو لك في كل الأوقات وأحكي عنك للجميع أنك جميل وطيب القلب وتعطي بلا أخذ، لم يذكرك أحد بأي سوء من قبل.

كان يوسف هو من ساعدني على كشف دهاليز البحر، ساعدني حتى وقفت على قدمي في تلك المهنة ويقومني بحرص على أن أتحسن

وأصير ذا كفاءة، لكن الحياة ما زالت تثبت لي أنها ليست منصفة، تخطف الأحبة بجشع.

مر شهران على وفاة صديقي، لم تمر لحظة إلا وأنا أفكر فيه، كان يأتيني في الحلم كثيرًا مبتسمًا كعادته حتى بات في خاطري أنني سألحق به يومًا ما، لكن كان هناك شيء آخر يجعلني متمسكًا "ميلا" نعم إنها هي، الفتاة الجميلة التي أعطتني أملًا في التشبث بحياتي البائسة، كان علي أن أعرض عليها الزواج كوننا نتقابل كثيرًا وبدأت تشعر بدفء يحوط بنا، كان لا بد من دراسة شخصيتها الملفتة ولقد نجحت في كل اختبار، أنا حقًّا مرتبك كيف سأقدم على هذه الخطوة؟ سألت أختيَّ حيث أنهما نساء مثل بعضهم لكن لم يعجبني اقتراحهما حتى أعجبني اقتراح من أحد أصدقائي وقررت تنفيذه.

وجاء اليوم الموعود، يوم لا ينفع فيه لباس منمق أو قوام مشدود، اتفقنا على أن نأكل الغداء معا في أحد المطاعم، كانت ترتدي فستانًا يظهر نصف ظهرها، وحلق ذهبي وذراعيها كانت تلمع مثل الحرير، تريد نفسها في أبها صورة لكنها لا تعلم أن ذلك يرهقني نفسيًّا.

انتهينا من الأكل وجاءت اللحظة المنتظرة، أنزل الويتر قطعة من الكيكة بالشوكولاتة السائحة على الطاولة.

– لا لم أستطع لقد أكلت كثيرًا.

فأمسكت الملعقة وبدأت الحفر حتى وصلت إلى جزء يلمع فتيقنت وأخرجت الخاتم وفي ذهول تام منها فنظفته وقلت لها:

– Will you marry me?

طبقت يدها على فمها مبحلقة لا تتكلم، ثم بعدها نزلت دموعها وهي تهز رأسها قائلة: تقول yes.

ثم وضعت الخاتم في إصبعها "البنصر" وزغردت فرحًا حتى شاهدنا كل من في المطعم، رجل يزغرد يا لها من أعجوبة.

حل الخجل علينا لم نعرف ماذا نقول لبعضنا؟ وأكملنا اليوم ونحن نسرح في بعضنا ونتخيل حياتنا كيف ستكون؟

الفصل الثالث

صار العمل مملًّا وقل الشغف تجاهه حتى فنت أوقات السعي، لكنه شرًّا لا بد منه كي أداوم على الحياة وبعد وفاة صديقي كرهت تلك الوظيفة المشؤومة فقد سقط بعده عدت زملاء إما غرقًا أو حوادث متعلقة بالغوص، فكرت في اللجوء لعمل آخر لم يبعد هذا العمل بالطبع عن مجال البحر، انتشرت في الآونة الأخيرة نوادٍ خاصة للسباحة وفتحت نوادٍ في العاصمة تريد شبابًا يهوى التبلل.

كانت ميلا قد تركت وظيفتها وجلست في البيت عاطلة وعزمت على استغلال حالتها لتأجير أحد حمامات السباحة في القاهرة والعمل سويًّا كمدربين للسباحة، وافقت فورًا دون جدل وشرعنا مراكبنا وجهزنا شباكنا لصيد البشر، طبعت كروتًا بها معلومات عني وعن ميلا بها اسم

يحتل مساحة كبيرة swim easy هذا هو اسم النادي بعد اتفاق، انتشر هذا الكارت بين هواة السباحة لاحظنا أرقامًا غريبة تكلمنا لأخذ دورات تدريبية معنا وقسمنا المتدربين إلى مجموعات، كانت ميلا ماهرة عني في التعامل فتركت أمر التنظيم لها، خدمنا الحظ وصارت أسماؤنا معروفة حتى وصل إلينا التلفاز والصحافة لعمل مقابلات معنا وخرّج نادينا أبطالًا يأخذون المداليات.

وفي ذلك الوقت كان لا بد من مواجهة أسرتي بحقيقة زواجي، كان عقلي يدور وضميري يتقلب كان على أهلي رؤية "ميلا" الاستمرار على هذا الوضع كان خانقًا، كنت أتواصل معهم هاتفيًّا يسألوني عن حالي وأتوارى عن مصارحتهم، حتى هي انضمت إلى ضميري وطالبتني مرارًا برؤيتهم.

ومن كثرة التكفير والمطالبات قلت لميلا زوجتي جهزي نفسك دون سابق معرفة تفاجأت.

– لن نذهب للنادي اليوم.

– لا سنسافر إلى أسوان ارتدي أجمل شيء عندك واحرصي على الاحتشام قليلًا ...هذا الصعيد.

انتظرتها ساعتين أقسم لكم ساعتين ترتدي ملابسها وكأنها في محاضرة جامعية أو تصنع ملابسها بأنفسها ثم انتهت أخيرًا وخرجت في زي مناسب، بنطال من الجينس وبلوفر أكمامه طويلة.

كانت الطرق كما هي لم تتغير، لا أعرف ماذا يفعل المسؤولون في هذه البلد؟ لم يتغير أي شيء، تنظر إلى العربات المفتتة على جانبي الطريق من الحوادث لتترحم عليهم وعلى حالك لتصل إلى بر الأمان.

لاحظت ميلا الاختلاف بين المدينة التي نقطن بها والريف الذي بدأ يظهر بخضارة وجلاليبه ومواشيه، وبساطة سكانه كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها مدينتي أسوان منذ سنوات.

وصلنا للبيت وقرعت الجرس في ترقب؛ لتفتح إسراء الباب التي هجمت عليّ في عناق طويل، لم تتغير ملامحها عن آخر مرة رأيتها، ربما مرطبات البشرة غيرتها وجعلتها أكثر جمالًا، رائحتها كانت زكية على غير عادتها.

انفجرت قنبلة من العناق في البيت كان الكل ينظر لزوجتي في تعجب لكني قطعت تساؤلاتهم قائلًا: هذه زوجتي.

نظرت لي أمي في اشمئزاز وكأني شتمتها ثم حاولت إخفاء ذلك قائلة: اجلسا "نورتونا".

ساد صمت غريب بيننا كان الكل ما زال ينظر إلى ميلا علياء وابنها وأختي إسراء التي كانت تبتسم ابتسامة غريبة، أمي بالطبع لا أحتاج أن أشرح.

وقفت زوجتي وتمشت في البيت دون إذن وأخذت تنظر يمينًا ويسارًا كأنها في متحف، ثم تابعتها كانت في تلك اللحظة أمام صور أبي رحمه الله.

– هذا أبي رحمه الله.

– يشبهك كثيرًا.

– نعم أنا نسخة منه.

ثم أخرجت بعدها ألبومًا من الصور كان في دولاب لم يتغير موضعه منذ سنوات، وفرجتها على ذكرياتي ومراحل نموي، كانت كلما ترى صورة تضحك كانت تقول أنني كنت مثل "الدبدوب" ولم أجادلها فأنا كنت سخيفًا قليلًا.

وبعد الاستهزاء بي بلا داعٍ رجعنا نجلس مع أسرتي.

قالت أمي التي بدا عليها البؤس: قولي لي يا حبيبتي أين أهلك؟ لماذا ليسوا معك؟

كانت ميلا تعرف العربية قليلًا فردت بطبيعتها المعهودة ولكنة عربية مفتتة منكسرة:

– في إنجلترا.

– ومتى سنراهم؟

تدخلت أنا بعد أن وجدت الحرارة تخرج من أمي كمحرك سيارة: بالتأكيد سنجلس مع بعضنا سويًّا.

اقتربت من علياء وحاولت التحدث معها بكلام خافت:

– ما بها أمي لماذا تتكلم بهذه الطريقة؟

– أنت لا تعلم ماذا فعلت؟ اسكت اسكت.

قلت كالبهلوان: أين الغداء يا ست الكل؟ لقد اشتقت إلى أكلك الطيب.

– ردت وهي تنظر إلى زوجتي تبحلق لا أعرف لماذا؟موجود يا بني موجود، وأطالت في نطق حرف الواو قالتها بطريقة سهير البابلي في مسرحية ريا وسكينة.

جلسنا نأكل كان الأكل عبارة عن أرز ودجاج محمر وسلطة وبطاطس بصلصة الطماطم، كنا نأكل في صمت وكأن أحدًا يراقبنا يسمع فقط

صوت الملاعق تخبط في الصحون وتشم رائحة الطبيخ، كان الأكل طيبًا كدت أن آكل أصابعي معه و"ميلا" والحمد لله لم تلاحظ نظرات أمي الشاذة إلى الآن أو ربما لاحظت لكنها تريد مسايرة الأمور، رفعت الأطباق بواسطة إخوتي ثم قلت لميلا أننا سنبيت، قالت باقتضاب: لكننا لم نحضر ملابس معنا لِم لم تقل لي؟

– هذا جزء من الخطة.

– خطة؟ خطة ماذا؟

– خطوت نحو أمي ثم قلت: سنبيت معكم.

– صمتت للحظات ثم قالت: طبعًا، وهل هذا يحتاج إلى كلام؟

ادخل لإسراء وعلياء إخوتك وخذ منهم شيئًا ملائمًا لجسد زوجتك وأنت تعرف طريق ملابس أبيك.

– حسنًا أمي، هل أنت في ضيق مني كوني لم أخبرك بأمر جوازي؟

نظرت نحوه في تعجب كأنها تفكر في كلمات للرد فتلفظ من لسانها هذه الجملة: لا المهم أنك سعيد معها، وأنا لن أعيش لك طول العمر.

– الله يعطيك الصحة يا غالية.

يشيب جسدك تنظر لمرأتك المفضلة التي تعودت أن تجد نفسك بها شابًّا يافعًا مفعمًا بالقوة كالصلب، عينك تروح لعمرك القادم ويتصور بعين الحلو وبعين المر، كان لا بد من إدارة ظهري لكل ما هو سيئ والتطلع لأن يرزقني الله بمولود، أنا لست خائفًا ربما حينما يكبر يجد العالم أكثر جمالًا، ربما هناك شيء جيد سيأخذ بيده، إن أصعب ما في الأمر التيقن أن النعمة قد تكون نقمة في لحظة، سأدعو ثم أخطو نحو خليفة لي أمل أن يجد له خيرًا ويصير ناجحًا أفتخر به أو فتاة أحتذي بها شامخًا، يا ليت الحياة تبقيني أبديًّا للغوص في ثنياته كصفحة في كتاب مقدس أو كنقوش على جدار أثري.

***

الساعة الـ 8 صباحًا..

ميلا، ناديت ميلا والتفتت لي بابتسامة كانت تسرح شعرها في جلباب ملون بنكهة ريفية برائحة ورد الربيع: نعم.

– متى سوف ننجب؟

– كنت سوف أفتتح معك الموضوع أعتقد أنه حان الأوان لأن نفكر بهذا.

– أنا معك لكني متوجس قليلًا، يجب أن نحرص على هذه الخطوة.

– يجب أن يكون طيب القلب مثلك.

– حسنًا بينما....

– ماذا لم تنظر لي هكذا؟

وضعت يدي حول خصرها الذي يشبه غصن الشجر الملتوي ثم جذبتها نحوي ببطء، أنت أيها المتملق إنها زوجتي أنا فقط من أقول ذلك.

– انتشرت ضحكتها وهي تقول: ماذا تفعل؟

قلت وهرمون الدوبامين يضخ سيأتي حالًا، توقف الوقت ووقف معه شيء آخر.

– من؟

– الولد أو الطفلة.

– ومع أول قبلة ربما علينا إنجاب الاثنين.

يداها المغمرة بالصابون تنفض الأطباق من الماء لتكن لامعة أمامها كومة من الحلل والمشغولات الزجاجية ككتل من الرمل مع الثيل الفاتر في حوض متسخ بفتات الطعام، رغم تسمرها لدقائق إلا أنها كانت ثابتة

كضابط مرور، كانت أمي في المطبخ المكان الذي تقضي به أكثر وقتها، تسحبت من خلفها مقبلًا رأسها الذي لطالما شغل بي قائلًا:

– ماذا تفعلين يا ست الكل؟

– ردت بإنهاك: كما ترى.

– أود شراء شقة في القرية.

لماذا؟ هل ستترك المدينة وتأتي إلى الأرياف بلد الغلابة؟ لقد أصبحت من البشوات لا يصح للبشوات العيش هنا.

ابتسمت قائلًا: الطفل إذا خرج من بطن أمه سيظل ابن أمه، قولي لي من ينصحني في هذا الأمر؟

– مروان!

قلت واضعا يدي على وجهي كالمصدوم: يااااه لقد نسيت هذا الأحمق.

قالت وهي تضع آخر الصحون على رف متهالكة: اذهب إلى هذا الأحمق لقد علمت أنه يعمل مقاولًا.

– مروان ذو الرائحة العفنة صار مقاولًا يا للعجب!

– وأنت كنت ماذا؟ كنت بائع خضار في السوق وهل يعني كنت وزيرًا؟

– لوحت بيدي في الهواء معيبًا الزمن، عندك حق ثم وسألت في شوق أين أجده؟ هل ما زال في القرية؟

استدارت لي قائلة: نعم إلى أين سيذهب؟

أقدامي سبقتني لتغيير ملابسي وترجلت ماشيًا إلى منزله الذي بدأ غير مألوف، المنزل ذو الطابق الأرضي صار طابقين مع وجهة ملونة وكلمات إسلامية مرسومة على البلكونات مفادها بسم الله الرحمن الرحيم وقل أعوذ برب الفلق، وباب كبير أسود بجانب جرس ضغط عليه وكأنني سأدخل لقصر لأحد الأمراء، فتح الباب وأصوات أطفال تخرج.

كان غير مروان الذي آخر مرة رأيته بها لقد فقد شعره وأصبح بصلعة كالظلطة حدق في قائلًا: من؟ لا لا تقل لي نااصر؟! افتقدك يا ابن البرتوش ثم انكب علي في عناق.

– تعال تعال.

وطأت قدماي بيته لاحظت طفلين يلعبان بمجسمات كحيوانات صغيرة من البلاستيك.

ناداهما وصافحتهما قبل أن أجلس على كرسي الأنتريه مطلي بلون ذهبي كلاسيكي حتة سجاد جديد الصنع.

قلت مازحًا: متى أنجبت هؤلاء؟

– حامد وعطية إنهما توأم.

– ومن الذي ارتضت بهذه الخلقة؟

– ضحك قائلًا يخبط بيده على فخذي: خمن من؟

– صمت حدق بي لم تتفوه حقيقته لا أعرف فمنذ معرفتي لمروان لم يصرح لي بأي فتاة أعجب بها منذ طفولتنا حتى ظننت أنه ليس له في الجنس الناعم لكن هناك فتاة قد تحدث لي عنها لا أتذكرها.

إلى أين ذهبت؟ نظر بابتهاج قائلًا: عائشة.

وهنا تذكرت كل شيء، إنها فتاة كان يحلم بها كجائزة وها قد فاز.

ناداها، كانت جميلة الملامح، بيضاء البشرة، قصيرة القامة، وتمتلك سلامًا داخليًّا مربكًا، أنزلت صينية الشاي ودخلت مسرعة كأنها في سباق.

ارتفع سعال طفل من الأطفال وكأنه نفسه الأخير، هم مروان في ارتياب وتخبط يدخل غرفة تبعد مترين تقريبًا ثم خرج منها ممسكًا ببخاخة الربو منجدًا ابنه الهزيل.

– قلت لك مائة مرة لا ترمها من يدك.

ثم نادى بعلو: عائشة عائشة تعالي خذي عطية.

– مروان أريد أن أشتري شقة.

بدأ يندهش وهو يرتشف الشاي قائلًا: هنا في قريتنا لماذا؟

– ستكون راحة لي حينما آتي إلى هنا غير أن بيت الأسرة امتلأ كمسكن المغتربين.

– أمرها سهل دع لي هذا الأمر.

– أين زوجتك؟

– تصدق بالله إني نسيت إحضارها ثم إنها تشبط في كل شيء، البارحة رأت جاموسًا وراء أحد المارة ذهبت للرجل لتخبره أنها تريد أن تطعمها.

زلزلت القهقهة صينية الشاي في يده، حتى أنني فزعت، تابعت، فأعطاها برسيمًا وأخذت تطعمها أقسم لك أنها لا تفعل معي ذلك يا أخي.

– إذا يجب أن تصبح جاموسًا يا ناصر وواصل الضحك.

قال بعد أن هدأ: يجيب أن تأتي لزيارتنا هنا أنت وهي في المرة القادمة.

بعد أن ثرثرنا لساعات وإلحاحة للأكل وخرجت من بيته منتفخ البطن بأشياء تفتك بالأمعاء، بين الندم الذي يؤلمني والابتهاج الذي خلقته الحلوى الدسمة، ثم ما كان لي أن أرجع للبيت فارغ اليد فملأتها بما لذ وطاب وعجن وطبخ، وانتشر في قريتنا كنار في الهواء دراجة بخارية تشبه الخنفساء سموها "التوكتوك" حلا من الحكومة لمعالجة البطالة إلا أني أرى أنها ستزيد مالكيها فقرًا، حاولت إيقاف أحد أمامي العديد.

كان السائق لا يستقر في اتجاه يلتف ويلتوي ويتحرك ببهلوانية غير مكترث، نغزته قائلًا:

– تمهل قليلًا.

رد كالمشلول في لسانه: هل أنت خائف؟ يبدو أنها أول رحلة لك.

– وستكون الأخيرة إذا ما التزمت بالطريق.

– دعها لله، كله بأمره.

تحول إلى شيخ أزهري في ثوانٍ ثم تابع سيره، كل هذا شيء وما أثارني حقًّا أنه وصل في دقائق كأن هذه المركبة بوابة زمنية أو مركبة فضائية تكسر قوانين الفيزياء.

كانت ميلا مفترشة الأرض تعجن مع أمي التي اتضح منها أنها ستتخذ ميلا ابنة ثالثة، كانت تعلمها كيف تفرد أقراص العجين والدقيق يغطي ثيابهما مشمرتين الأكمام في مهمة عجن رغيف متزن القوام.

– ماذا تفعلين؟

– ردت ميلا في حزق: كما ترى.

تجاهلت هذا الحدث النادر وأغلقت خلفي باب غرفتي، قررت صنع هيكل جديد زخرفي لكن لم أجد خشبًا ملائمًا فخرجت أتطلع إلى أزقة الشوارع حتى وجدت قطعتين من أغصان الشجر، كنت قد نسيت مهاراتي تقريبًا فحاولت مرة، اثنان، ثلاثة، انتهيت من عمل شيء واضح التفاصيل وسميت الله مستعينًا بقطع الخشب بحرص شديد كأني أفتح خازينة بنك في عملية سرقة، جرحت إصبعي كالمغفل هرولت إلى صنبور المياه لإيقاف شلال الدماء المنهمر، كان الدم وكأنه غير مصدق أنه خرج من جسدي، كأنه محبوس في ظلم، بعد الضغط على الجرح بعزم توقف ثم دخلت المطبخ أسال أختيَّ علياء وإسراء اللتين كانتا تطهوان الطعام عن قطعة قماش، حينما لاحظوا الجرح شهقوا في نفس اللحظة قائلتين:

– ماذا حل بك؟

– لا شيء جرح بسيط أريد قطعة قماش.

في لحظات وجدت إسراء أختي تلف قطعة القماش حول إصبعي ثم قالت: احترس مرة أخرى يا فنان.

– كفي عن السخرية يا حبيبة الشيكو رأيت أسنانها في ابتسامة ثم قلت: أين هو؟

تركت لف القماش وخرجت من المطبخ منزعجة.

– ما بها؟

– "الواد" الذي كانت تحبه تزوج منذ عدة أشهر.

في سخرية من اسمه قلت بعجرفة: كان اسمه شيكابالا شكوكو كررت عدة أسماء مرتبطة بحرف الشين.

قالت علياء مقاطعة: الشيكو.

– نعم هذا هو الاسم ومن تزوج؟

قلت وهي تقلب في حلة يخرج منها بخار برائحة ذكية لا أعلم هذه الإجابة عند حبيبته السابقة هي الآن في حالة لا يرثى لها دعك منها.

– أين ابنك؟

– في الحضانة.

بعد تضخم حكم كف يدي الأيمن بضمامة بيضاء وتيبس عقلي عن المواصلة منع ضوء الشمس المنصب على وجهي يتسرب من الشباك، رفضت إغلاقه مستسلمًا وظهر في النهار القمر ليجلس بجانبي، وضعت رأسي بثقله على فخذيها تلاعبت في خصلات شعري أعيننا في أعين بعض نحلم في يقظة عن ما يخبئه الزمن لنا نتكلم بأعيننا.

أحيانًا أسأل الحياة هل إن تركناها سنرتاح أم أن الراحة في المواصلة؟ هل نجهد بعد موتنا أم أن الموت حتى لا يكفينا إنها حقًّا خادعة وماكرة؟ كيف ننهزم في شبابنا وشيوخ عاشوا أحلامنا خبراء في ترويض الظروف كترويض الحيوانات المفترسة، دمي المعافرة والمعارضة والتمرد والعصيان تأتينا الابتسامة غافلين المآسي، محاولين التكيف مثل غيرنا، هل الارتماء في جسد امرأة هو المشبع لغرائزنا التي لا تردم مثل حفرة عميقة في رمل صحراء أم أن المتعة في محاربة غرائزنا؟ يا لي من مغرور أتحدى الله وحكمته، يا لي من أحمق قد نسيت أنها فقاعة تذهب مع الرياح، ماذا تريد؟ أتريد تحطيم الجبال التي خلقت لعرقلتك أم الاستلام شاكرًا الله على الأنفاس؟ أود حقًّا أن أكون لكن هذه الكلمة يصعب حتى تحقيقها فمن أنت لتكن أنت واحد من مليارات يتحركون؟ هل تظن أن الأمر يتعرقل عندك أو أن الكون ينبسط تحت أرجلك

البشرية؟ لقد واجهت حقيقتي، قالت لي أنك لست شيئًا يذكر ربما عالة وغيرك يستحق العيش وروحك يجب أن تعاود وتتطوف مثلما كانت، ما بك يا ناصر؟ لِم أنت كالموجة تبدأ قوية وتنتهي كدخان السجائر أم أنك شديد كالأهرامات واقفة آلاف السنين في معجزة؟ وبعدها ماذا بعد كيف هذه الكلمة التي ستسمعونها كثيرًا أو تقولونها أو تكتبونها؟ يا لها من كلمة معقدة إنها من كقطعة حديد ملتحمة في لحم الأرض يود أحد نزعها، أعتقد أنه غبي كونه يفعل ذلك، لنرى ذلك على أية حال.

في تمام الساعة العاشرة صباحًا كانت إسراء تجلس على الأريكة تتابع التلفاز كانت تشاهد فيلم لمحمد سعد اسمه "اللمبي"، كان طريفًا أشعرها ببعض السعادة فجلست أمامها متابعًا بعد أن قلت صباح الخير لترد بنفس الكلمة في صمت، أتابع بلهفة سرحت في بالي قائلًا:

– أين الفقر الذي كنا نحن فيه؟ كيف تغير كل شيء وصار التلفاز الذي يرى بتعب يلفت من اتساعه مع بيت بأثاث غني ليس بالفاخر لكنه في تصنيف أصحاب المال؟ فشكرت الله على هذه النعمة وحمدت أن عملي تكفل بأسرتي قليلًا، تخيلت ماذا لو لم أعمل غطاسًا وأفتح نادي للسباحة؟ هل سنكون؟ استرجعت أيام حينما كنت أعمل بائعًا الخضار في سوق شعبي وكيف كانت مرة كالقهوة؟

– زاد طولك لتكون في طول كتفي وصرت عروسًا ما شاء الله.

قالت في اقتضاب: الجزء الأول جميل لطالما أردت تحصيل هذا البرج الشاهق أما الثاني فما المناسبة؟

– يعني أعتقد أن أمك تريد توفير بعض النفقات، قبل أن أكمل الجملة ظهرت أمي كالعفريت.

– هي لا تشكل عبئًا يا ناصر تعيش في منزلها معززة مكرمة ثم إن ماذا أخذوا السيدات من الزواج؟

قلت في سخرية: دائمًا ما تغلبيني يا أمي ولدينا حالة في البيت هنا انتهت من هذه التجربة ثم سألت بتعجب: أين علياء؟

قالت إسراء: في العمل.

– ما زالت تعمل مدرسة؟

– قالت أمي في حسرة: وهل هناك عمل هذه الأيام؟ البلد حالها وقف.

– هذه البلد تحتاج إلى "فهلوة" بالفهلوة تستطيع أن تجني المال.

نظروا لي بتأمل وكأنهم رؤوا كائنًا آخر من غير التفكير في الأمر عرفت أنهم يرون شخصًا آخر غير الذي يعرفونه، فأنا لست هذا المراهق المتخبط الذي كان يجهل الكثير بل رجل يتحمل المسؤولية.

قالت أمي: ماذا تريدون الأكل اليوم؟

أنا مع الأسف لن أستطيع أن آكل الغداء معكم اليوم، سوف آخذ "ميلا" ونذهب إلى مروان في زيارة.

تحضرنا لهذه الزيارة المنتظرة من قبل صديقي، تعبت من كلامي مع زوجتي التي ما زالت غير مقتنعة أننا في قرية ريفية يتخذ أهلها من الأقمشة منبر العفة والشرف لكن في النهاية أقنعتها بعد أن كانت تريد ارتداء ملابس تشف الجسد، ثم ترجلنا إلى منزله فتح الباب لنا ابن من أبنائه الصغار، كان الطفل ذا شعر أصفر وعيون ملونة كسكان الغرب لا أتذكر اسمه لتحتضنه ميلا وتقبله عشرات المرات من خدوده التي احمرت خجلًا، جلسنا ننتظر وكان البيت بيت أشباح ليخرج بعدها مروان قائلًا:

– يا مرحبًا يا مرحبًا بلهجته الخشنة كان صوته يشبه صوت العِرَس قبل بضع سنوات ربما الأدوية الجنسية غيرت من فسيولوجيته المعتادة.

مدت ميلا يدها لتسلم عليه في كسوف ويمد يده كان سلامًا باردًا بأطراف الأصابع وكأن أحدًا منهم لديه فيروس مناعي.

نادى على زوجته التي حسبتها تتخذ المطبخ ملجأ لها من حرب في الخارج.

ورأيتها لأول مرة لم تسلم علي متذكرة عادتها وانكبت على ميلا تقبل كل جزء في رأسها.

أنرتم البيت والله.

قلت في انكماش: هذا نورك يا أبو حنجرة ماذا فعلت في موضوع البيت؟

قبل أن نتكلم عائشة حضرت لكم غداء لا مثيل له.

قالت ميلا: في تلعثم نشكركم على هذا باللغة العربية العربية الفصحى كمذيعة لنشرة إخبارية.

– استأذنت زوجته للرجوع لصومعتها ثم لحقتها ميلا.

قام مروان من كرسيه وجلس بجانبي وهمس قائلًا:

– أين قد تعرفت عليها؟

– في القاهرة لقد حكيت لك القصة في الهاتف هل نسيت؟

قال في تعجب: وكيف تتعامل معاها؟

مثلما تتعامل مع زوجتك لكن الثقافة مختلفة يجب التعامل بخفة كقطعة إسفنج.

ثم اقترب أكثر حتى أن هواء أنفاسه خبط في وجهي، وهل تطبخ؟

ليس كبنات بلدتنا تتعلم من أمي في الفترة الأخيرة وآمل تعلم أطباق أكثر عندما كنا في القاهرة كانت تطلب وجبات سريعة حتى أصيبت أمعائي بالبكتيريا.

– قهقه في امتعاض ثم قال: الله يحفظكما يا ناصر.

سرعان ما انتهوا من طهي الطعام وجلسنا في دائرة حول الطبلية حمام محشي والبهارات مع أطباق الأرز الأبيض وبعض أطباق السلطة في صحون صغيرة ومعالق تبرق كالنجوم، كان المضغ هو السائد كالغيمة، كانت ميلا مستمتعة بالأكل في انسجام كنت في طمأنينة لرؤيتها تغرس الملاعق في الصحون وتمد يديها النحيفتين متنقلة بين كل ما يعجبها.

مازحت أحد أبنائه قائلًا: لماذا لا تأكل يا عطية؟ هل يأكلون أكلك يا بني؟

– لم يرد في خجل وهز رأسه نافيًا.

– والله يا ناس هذا هو الذي يشقيني يأكل بطلوع الروح.

– يجب أن تأكل اسمك عطية صح؟

نعم.

– حاصل ضرب اثنين في أربعة كم يا عطية؟

قال بصوت طفولي: بثمانية.

قالت ميلا في ذهول واو يبدو أنك بارع في الحساب.

تابعت أمه: هو ذكي في المدرسة لكن يغلبنا هنا.

– وأنت يا حامد لا تجاوب يا عطية عشرة قسمة خمسة كم لدي؟

قالها مترددًا، فسبقه عطية قائلًا: اثنان.

– مروان يا ولد دعه يقول.

– هل كنت تعرف الإجابة يا حامد؟ صمت.

قال والده في جلبابه رصاصي اللون هو فقط غير مستعد: تعود أن يجد هذا مكتوبًا بالطباشير.

قلت" التعليم يجل الأطفال يحفظون أكثر من الفهم.

ثم انتهينا من الأكل وجلسنا نتحدث وأخلق فوازير لكي يقوموا بحلها كنت قد عرفتها من كتاب كنت أقرؤه.

– هاه ألن تقول لي عن...؟

– البيت، نعم لقد نظرت إلى عدة منازل هنا، ووجدت لك بيتًا مجاورًا قريبًا من النيل غادر مالكه إلى الإسماعيلية وهو الآن معروض للبيع.

هل عندك استعداد لإلقاء نظرة اليوم؟

– بالطبع.

اصطحبنا مروان إلى وجهتنا، كان هناك حارس يحمل البندقية بشارب غليظ في الخمسين من عمره، صافحنا في احترام قائلًا: السلام عليكم باش مهندس مروان.

قلت في خاطري: منذ متى ويقال لك باش مهندس يا ابن سعيد الحرامي؟

– ثم أخذنا إلى شقة في منزل بطابقين مقابلة للنيل عندما خطوت بها شعرت بمعيشة الناس في السبعين من القرن الماضي، كانت المنطقة هادئة كهدوء مياه النهر الفاتر، أعمدة إنارة متهالكة لكنها تعمل قبل أوانها في العصر، كان الشارع مسفلت عن معظم مناطق المدينة.

– هريدي: يا عم كل شبر في القرية بل في أسوان كلها.

رد قائلًا واضعًا يده على صدره: نحمده ونشكر فضله، كانت ملامحه قمحية فعملت أنه ليس من أسوان بل من محافظات شمالية.

– من أين أنت يا حاج هريدي؟

من سوهاج يا سعادة البيه والله.

– أنت البيه يا رجل يا طيب.

تجولنا في الشقة التي كان بها أثاث عتيق كاملة الأوصاف تظهر مدى ما صرف عليها، تعابير ميلا زوجتي تعبر عن رضاها وهذا هو الجزء الأهم بل هو أهم من شراء الشقة.

– هاه ألن تقول لنا سعرها؟

والله يا أستاذ ناصر السكان هنا قبلكم هم الدكتور شوقي وزوجته وابنه لكنهم انتقلوا للعيش في الخارج والدكتور على تواصل معي بشأن بيعها وهو وضع مبلغ ثلاثمائة ألف جنيه قابلة للتفاوض.

صوت عقلي ما هذا المبلغ؟ حسابي في البنك بعد هذه الرحلة لم يتخطّ المئة وخمسين ألف.

– إذا أردت أن أنقص كم سيكون؟

– ربما ثلاثين ألفًا.

ابتسمت قائلًا: ما كل هذا المبلغ؟ لماذا تضغط على نفسك؟

– أنا هنا عبد مأمور وهذا ما حدده الدكتور.

– على ما أظن أنها مغلقة إلى هذا الحد، لا جدال ولا نقاش ورحلنا نحن الثلاثة خائبي الرجاء.

– ما هذا يا مروان؟ أنا أعمل مدرب سباحة في مصر وليس في السعودية.

– نرى غيرها لا مشكلة في ذلك.

عند رجوعي أنا وميلا تناقشنا في الأمر وقالت لي أنه من العيب أنني لم أشاركها ومتفاجئة بقراراتي تارة السفر وتارة شراء شقة جديدة، ولمت نفسي على هذا أعتقد أن الشاب الشقي الذي يريد لفت انتباهها يجب التنحي، أسرتها مستقرة الحال وممكن المساعدة غير أنها لديها من العملة الصعبة ما تسد حاجتنا، انتقل الجدل إلى جانب آخر كان محتدمًا حول أن الشقة قد أعجبت ميلا جدًّا وأنا رافض وضعها للنقود حتى لو قرش كنت أود أن أقوم بالأمر بمفردي دون مساعدة، لكنها قد غلبتني، استسلمت ورفعت الراية تحت إلحاحها ولمساتها الرقيقة ولكنتها الإنجليزية واتفقنا على شرائها وكلمت هريدي هاتفيًّا قائلًا: إننا مستعدون، فقال إنه سيكلم الدكتور ليأتي إلى مصر في أسرع وقت لتوقيع العقود.

في الساعة السابعة صباحًا كان الاستيقاظ سائدًا على أعين ميلا، كنت أظن أنه حلم لكن سرعان ما تداركت واقعًا خبط رأسي لأفيق ولحظت ذلك أيضًا حينما وجدت جهاز التسجيل يغني لأحد أغاني مايكل جاكسون فقمت متسائلًا: ما الأمر؟

– لقد استيقظت.

وهل بهذا الصوت المرتفع ينام أحد، ماذا تفعلين؟

– أريد الذهاب في رحلة.

محاولًا فتح عيني الغارقتين في النوم: رحلة هل أنت مجنونة؟ الساعة السابعة.

قالت وهي تتراقص بخفة مع الموسيقى وهذا هو الوقت المناسب.

– اغلقي هذا الشيء وإلا حطمته.

– لا.

– حسنًا أخفضي الصوت قليلًا.

فأغلقته تمامًا وجلست بجواري: ناصر لِم لا نذهب في نزهة؟

قلت في ضيق لِم لا تقولين لي ذلك البارحة؟

– سيد المفاجآت أنت خبير في ذلك تخطط لكل شيء دون سابق إنذار وأنا أقلدك.

ابتسمت قائلًا: حسنًا ماذا تريدين الآن؟ الذهاب إلى رحلة بطائرتنا الخاصة أم ماذا؟

– لا البلد هنا جميلة جدًّا هناك مزارع وبقر وخراف صغيرة.

كل هذه الحيوانات نائمة الآن فالتحفت معاودًا النوم فنغزتني قائلًا: هيا يا ناصر هيا.

لا أعلم أين سنذهب؟ وهل سنجد حقًّا من يستقبلنا؟ من هذا الذي يستقبل غريبًا يشاهد ماشيته ودون معرفة بنا، لجأت لمروان تحدثت معه ليخبرني أن هناك واحدة مالكها صديق عمره كما يقول فأرشدني إليه وقال: قل فقط أنني تابع لك ووصف هيأته وكنيته.

ها هي التي تبحثين عنها قفزت تصفق مهللة.

– صباح الخير عم "عويس".

نعم أنا، كان رجل ثلاثيني بلحية كثيفة وعلى وجهه الورع والإيمان ممسكًا بسواك وسبحة، لكن هذا الرجل تطلع لزوجتي بنظرة مثيرة لعق شفتيه مدققًا، تغاضيت ليمر هذا اليوم مرور الكرام وقلت ربما لأول مرة يرى أجنبية أو لأول مرة يرى امرأة.

كانت مزرعته كبيرة بها خدم ومواشي كثيرة وإسطبل خيل هائل الاتساع.

– ماذا الآن يا ميلا؟

الحصان.

– ما به؟

– أريد ركوبه.

تابعنا عويس الذي يخفي كوارث خلف لحيته ثم قال: هذا بقى عنتر أفضل حصان عندي.

نطق بكلمة غير مفهومة وانحنى بعدها الحصان ثم قال: إنه يحييكم.

اقتربت ميلا من الحصان محاولة الركوب إلا أن عويس تلبس دور شكري سرحان محاولًا الإمساك بها للمساعدة لكنها رفضت قائلة: إنها تعرف ماذا تفعل.

تجولت في أنحاء المزرعة كان الحصان يلف بشكل دائري وميلا تروضه وكأنها تعرفه منذ ولادتها كانت ماهرة وذكية يمشي معها بخفة وسلاسة، كنت أراقبها في فخر، عرض علي ركوب حصان أيضًا لكن رفضت مكتفيًا بالوقوف للمشاهدة أنا حقًّا كنت متعطشًا للنوم أعصاب أطرافي كانت مرتخية ما تحتاجه هو الابتعاد عن الجهد، ثم نزلت وتحسن رأس الحصان الذي كان سهلًا مثل مالكه.

كان يوم لقاء الدكتور مالك الشقة، ذهبت بمفردي هذه المرة وضعت تخيل لشكله قبل الرحيل يا ترى كيف سيكون؟ هل هو قصير القامة أم طويل مثل لاعبي كرة اليد؟ هل هو حازم في طبعه أم رجل دبلوماسي؟

اتفقنا على التقابل في مقهى قريب لست أنا من حدد ذلك بل هو.

كان واقفًا مع هريدي يتحدث في عبارات بدت أنها مهمة ثم ما راح أن رآني التفت لي وتقدم في خطوات سريعة، رجل ذو شعر أبيض كثيف ولديه بعض العضلات الضخمة يرتدي بذلة وربطة عنق حمراء وحقيبة جلدية في يده ممسكًا بها بعزم، ولم أخمن ما إذا كان في الخمسين أو الأربعين من شبابه الفريز.

– أهلًا وسهلًا تفضل.

بعد لحظات غادر هريدي قائلًا: إنه لديه عمل.

– ماذا تشرب؟

– قهوة.

لا، لا وهل نحن في عزاء اطلب شيئًا باردًا الجو حار هنا.

– حسنًا ليمون قد يفي بالغرض.

وضع رجله على بعضها وأخرج سيجارة من النوع الفاخر محاولًا إعطائي واحدة لكني رفضت.

– لنتكلم في المهم لقد جئت من كندا خصيصًا إلى هنا لمقابلتك آمل أن يرضي هذا الجميع البيت كما رأيته، كان في الأصل ملك والدي

الذي اشتراه من أحد أقاربه، لكني قد بعت المحلات لأحد الأشخاص ولا أعلم لماذا أهملها ولم يستفد، ثم أخرج من حقيبته بعض الأوراق وقال: تفضل هذا هو العقد.

بدأت بقراءته مع فواتير الكهرباء والماء التي كانت منذ سبع سنوات.

– ما رأيك في هذا البلد؟

– توقفت عن القراءة قائلًا: أفضل من غيره.

– وإن كان هناك الأفضل لماذا إذًا العيش بها؟

ربما الخوف من المجهول نحن نعرف كل شيء هنا وهذه أرضنا التي عشنا بها، لكن الأفضل لم نعش فيه فمهما عشنا فيه سنظل غرباء.

– أعجبني تفكيرك، أنت تعمل مدرب للسباحة كما قال لي هريدي أليس صحيحًا؟

– نعم.

– ما أجمل هذا العمل، ابني أيضًا يتعلم السباحة.

كنت قد تحدثت مع محامٍ وأتي في تلك اللحظة راجع العقد ليتفق معه على إعطائه نسخة للمراجعة، كانت مهمة المحامي البحث في سجلات الشهر العقاري عن إذا هو مالكها أم لا، لكن كل شيء كان منضبطًا.

وتقابلنا بعد عشرة أيام تقريبًا ووقعت العقد واستلمت الشقة، دار بيني وبينه حوار عن لماذا يريد بيع ممتلكاته ليقول أنه يخطط لفتح عيادة هناك ويحتاج لتلك الأموال، غير أنه يريد شراء شقة في الغردقة فقلت له إنني أعرف الكثير من الناس أصحاب العقارات هناك وأستطيع خدمته وتبادلنا أرقام الهواتف.

بعد بضعة أيام من استلام الشقة اشتريت للشقة بابًا جديد وأنفقت ما كان لدي من أموال عليها ثم رجعت أنا وزوجتي إلى عملنا واتفقنا على زيارة الأهل من حين لآخر.

اتصال من إسراء:

– ناصر تعال بسرعة هناك كارثة.

خفق قلبي وانتفض وجداني فسألتها هل هي أمي؟ فأجابت بالنفي ثم قالت: ستعرف كل شيء حينما تأتي.

– أنا كنت عندك منذ بضع أيام قولي لي ما الأمر؟

لا أستطيع الشرح في الهاتف فالأمر معقد.

– لا إله إلا الله، هل هي علياء ابنها عبد الله بخير؟

" تعال وستعرف كل شيء.

– نزلت البيت قائلًا: لميلا أنني راجع لتقطب في تعجب لماذا؟

– سأشرح لكِ لاحقًا.

ودعتها واستقليت قطارًا استغرق اثني عشر ساعة كان الطريق شاقًّا وكأنني في سفر على قدمي.

– ما الأمر هكذا قلت عند وصولي كانت وجوههم توضح بشيء فظيع.

قالت لي أمي اجلس: التي كانت عيناها مرقرقة: إسراء احضري لأخيك الغداء.

– صحت في غضب لا أريد أكلًا، أريد أن أعرف ما الأمر.

– عبد الله.

– ما به؟

– مريض.

– ما بك يا أمي؟ ماذا بكم جميعًا؟ لماذا أنتم متجمدون هكذا؟

– الولد لا يستطيع التبول حينما راحت أنه تفحصه عند الطبيب قال لها أنه تعرض لهتك.

احمر وجهي وما معنى هذا ومن هذا الحيوان الذي يفعل هذا في طفل.

ثم انفجرت بكاءً تضع يديها على رأسها قائلًا: الصبي ما زال صغيرًا رحمتك يا الله يا رب يا رب.

– أين الولد؟

– في الغرفة.

كانت تجلس بجواره وهو ممدد على السرير لونه شاحب كانت تقرأ شيئًا:

– "بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ كُلِّ عَيْنٍ وَحَاسِدٍ يَشْفِيكَ".

التفتت إلي عندما رأيتها شعرت بحزنها وانتقل ما بداخلها إلي.

تكلمت بكلمات متقطعة بصوت لاهث: ولاد الكلب.

– اهدئي.

ثم جلست بجوارها واضعًا يدي على أكتافها مواسيًا.

– منذ يومين جاء لي يقول لي أن بطنه يؤلمه بشدة فأعطيت له دواء للأمعاء على أنها حالة اعتيادية. لكن تفاقم الأمر أنه بدأ يصرخ ويترجاني لنذهب للطبيب.

فذهبنا مسرعين أنا وأمي نفحص لاحظت لهث أنفاسها فأحضرت لها ماء وأنا أقول: صلي على النبي.

بعدها لاحظنا خدوشًا حمراء في الحوض وأعضاءه التناسلية.

انصدمنا مما رأيناه وكدت احتضر متسائلة: من فعل هذا من هذا المجرم؟

قال لي الطبيب أنه قد تعرض لاعتداء، مستحيل أن يفعل ذلك في نفسه، خرجت من العيادة وتمنيت أن أموت قبل أن أرى ابني قد تعرض لذلك، فلطمت على خدها تقول لماذا يا الله لماذا؟ قبلت رأسها وانهمرت بكاءً معها، وتساءلت من يفعل ذلك في طفل لم يتجاوز العاشرة من هذا الذي يجرؤ من نخوته وشرفه، ما هو العدل في الكون؟ هل هو موجود لأن يعتدي على طفل لا يعلم عن الدنيا ولا عن الآخرة، بشر هذا أم شيطان تخفى في هيئة بشر، دعوت الله مناجيًا حكمته مستعطفًا رضاه حامدًا على بلائه، أعلم أنك لا تغضب من عبادك بل إنك تبلوهم لتأخذ من ذنوبهم، الأطفال أحبابك فعدلك أنت لمن تحب وتثني.

ذهبنا لمدرسته مع تقارير طبية غرفة كغرفة مسؤول كبير لوحة صغيرة في مقدمة مكتب عليه ملفات وبعض الإكسسوارات مكتوب عليها المدير محمد على إبراهيم خبطها أمام مدير المدرسة الذي كان يجلس وكرشه يسد مساحة بين الكرسي والمكتب، كان رجلًا أصلع مع شعر جانبي أبيض اللون وتجاعيد تظهر قرية من الموت.

– خير يا أستاذ ما الأمر؟

– انظر إلى هذه الأوراق وستعرف!

– حسنًا اجلس أرجوك.

اطلع على التقرير ثم انقلب وجهه الذي كان منفرجًا قبل رؤية هذا، في فزع قال هذه جريمة عليَّ أن أبلغ الشرطة.

قلت في تشعث: ولماذا لم تفتح تحقيقًا منذ أن أتت إليك والدته؟ هل كنت تعتقد أنها تمزح في مسألة هتك عرض ابنها؟

قام من كرسيه الجلدي ورفع سماعة هاتف أرضي قائلًا بلهجة حادة: أريدك الآن.

سرعان ما جاء رجل في قميص كلاسيكي وحذاء ملمع وشعرت من هيأته أنه مسؤول وقد يعطي حلًّا.

أستاذ أحمد هو الأخصائي الاجتماعي في المدرسة.

لقد تابعت الأمر مع والدته لم أتخيل أن يصل الأمر لهذا الحد.

نظرا في أعين بعضهما قائلين: من الممكن هو؟

– من؟

لقد تعرفت على ولد في أحد الفصول لديه حالة شاذة في سلوكه حسبنا أنه مجرد حالة عابرة، وبعد استدعاء ولي أمره استعطفت لإبقاء ابنها في المدرسة وأنه أول وآخر مرة يفعل بها هكذا.

قالت علياء في اقتضاب: ماذا كان يفعل؟

– كان يتحرش بزملائه.

قلت محاولًا التمالك: وكيف تغفرون له هذا؟ أنتم أغبياء؟

تابع المدير: أستاذ اعلم أن حق عبد الله سيأتي وسنتخذ إجراءً حاسمًا.

– قسمًا برحمة أبي إن لم تفعلوا شيئًا سوف أفضحكم.

– سنبلغ الشرطة.

ابتسمت باستهزاء: وهل تظنون أنني لم أبلغ؟ لقد كتبت بلاغًا في قسم الشرطة وسأصعد الصبي يتلقى العلاج في البيت وهو الآن في حالة سيئة، ضعوا أطفالكم مكانه ماذا كنتم ستفعلون؟

كان الجميع صامتًا بين الارتباك والحسرة وجواب حالهم أنهم غافلون بعيدون عن الإدراك، فحادثة مثل هذه تؤدي بهم لقطع عملهم أو ربما السجن.

في الساعة العاشرة صباحًا عند استيقاظي وجدت عبد الله يذاكر في نشاط كان كما رجع من غفوة من مئات السنين، هادئًا بين أصابعه قلم رصاص يتلو صفحات كتاب علميٍّ، كان الجميع نائمًا إلا هو تساءلت ما سر تغير حاله هكذا من البارحة؟ كان كنطفة هائمة تأمل حاله كيف كان في شتات مهترئ.

– كيف حالك؟

– بخير.

– ماذا تذاكر أرني؟

كانت مادة العلوم معادلات فيزيائية لقد نسيت كل شيء عن الدراسة تقريبًا وأفادتني الحياة بما هو أرشد سبيلًا، لكن كان علي الاقتراب منه أكثر ومعرفة ماذا يدور في أفكاره الضئيلة.

– تدرس حركة الجسيمات؟ هذا رائع وماذا تعني؟

وضع طرف القلم بين شفتيه إمعانا ثم قال حركة الجسيمات من خلالها نستنتج طبيعة عمل الأشياء مثل الجزيئات.

– ما شاء الله صرت ذكيًّا، ما هذا؟ إنه أمامك في الكتاب أنت تغفلني.

– ضحك قائلًا: ويا لها من من ضحكة افتقدناها أنا أعلم، ولهذا قلتها في سرعة.

– كم سنة تتبقى لك في الابتدائية؟

– فأشار بإصبعه الصغير واحدة.

– إن نجحت هذا السنة هل تعلم ماذا سوف أحضر لك؟

– تأتأ قائلًا: لا.

– هدية كبيرة جدًّا جدًّا.

وما هي؟

– هذه مفاجأة.

– لا، أنا أريد أن أعرف الآن ليس لي شأن في ذلك.

– اصبر لا تكن ضيق الخلق مثل أمك، ثم بعدها تابع مذاكرته التي أجزم على أنها لا تنتهي، بعد تحدثي أملت الله له براحة البال والمقصد وأن يبعد عنه شياطين الإنس.

جرس الباب يرن في الثامنة على مشارف النهار، سمعت إسراء تناديني فقمت لها متطلعًا وأنا أتساءل من يأتي في هذه الساعة.

كان هناك رجلان من الشرطة يبدوان حازمين، واحد منهم أقصر من الآخر بقليل.

– هل أنت ناصر من سجل محضرًا منذ أيام؟

– جاوبت مترددًا: نعم.

– نريد بعض التفاصيل من الطفل لأن الأمر تم تصعيده إلى النيابة ويتم التحقيق مع مسؤولين المدرسة الآن.

– حسنًا وكيف لي أن أساعد؟

– أين الطفل من فضلكم؟ هو ووالدته سوف يأتون معنا إلى النيابة للتحقيق في كل شيء.

بدلنا ملابسنا المنزلية ركبنا العربة معهم ووصلنا إلى مبني تابع للأجهزة الأمنية وبدأ الحديث في خبايا هذا الفعل غير الآدمي بين بكاء علياء وتوتر عبد الله الذي على الرغم الخوف كان ثابتًا، كانت أذني موجهة إلى كل حرف ولسان حالي يقول لماذا؟ ماذا استفدت؟ لكن هذا الفعل لا يخرج إلا من مضطرب نفسي، مرت الدقائق وكأنها ساعات.

قال أحد الضباط: سوف أعرض عليك يا عبد الله بعض الطلبة في المدرسة وقل إن كنت تتذكر أحدًا منهم.

كانوا خمسة أطفال في أعمار مختلفة متقاربة من مدرسة.

أومأ عبد الله إلى اثنين قائلًا: هؤلاء، تنظر لوجوههم تشعر بقطع الأنفاس يرتدون أساور وسلاسل فضية اللون ووجوههم شاحبة مثل الماء العكر.

– كما توقعنا، قالها ضابط من الضباط في شجاعة.

بدأت علياء تصرخ قائلة حسبي الله ونعم الوكيل في صوت تلاعب بمشاعر الحاضرين.

"صراع"

نحن أسرى وعبيد، نحن لا شيء في هذا العالم من منا استطاع إلا وإذا انكب على وجهه مثل فاقدي الاتزان، أريد الهروب والابتعاد وأحيانًا أفضل البقاء وماذا هذا الهراء أفقدت عقلي أم أنها هلوسة النهايات؟ لا إنها الحقيقة المظلمة تتباين لك كثمرة طازجة وفي الصلب صارخة، أنا خائف من الطريق الطويل الذي أرهقني ببريق حمسني، فمشيت كالمهوس أعمى على أسفلت غير محسوس، لكني سأواصل وأعارك وإن رحلت قولوا عني كان يحاول.

مرت أيام ونمت القضية لتصل للمحكمة ويرفع القاضي حكمًا لتحويل الطفل المعتدي إلى سجن الأحداث كان الحكم بمنزلة ماء على نار

مشتعلة واعتدلت مشاعرنا لتكن فتورًا، كأنه ربيع جديد وشمس أشرقت بعد عاصفة.

في خضم هذا سعى أهل المعتدي للمساومة لكن ظهور ضحية أخرى زاد الأمر تعنتًا تجاه هذا الشيطان القاصر، عرضوا المال، كان ينقصهم الركوع لإنقاذ ما يسمى بطفلهم، شربنا جمل استعطاف ورجاء وأحيانًا تهديدًا لكننا توارينا وتحملها حتى نطق القاضي بحكمه العادل.

كان لا بد من الذهاب للطبيب النفسي لفحص عبد الله ومتابعة الأمر، استشرت الطبيب شوقي الذي نصحني بطبيب قال إنه قد درس في ألمانيا، بعد بضعة جلسات من النصائح أمرنا بأن نراقب سلوكه ومحاولة إدخاله في نشاطات بدنية قوية لتعزيز صحته النفسية كما قال وهذا ما سرنا عليه كالسير على أنامل القدم، بما فينا من كد شعرنا بالانتصار على وجه عبد الله، وتنفسنا رحيق الأمل، وها هو ابننا أغرق مآسيه وتسطح للحياة مظهرًا فؤاده.

فاجأتني ميلا بخبر أن والديها سوف يأتيان في زيارة سياحية بعد شهر تقريبًا، كان الأب الذي يعمل عالمًا للآثار ويقطن في مصر منذ عشر سنوات خضع للرجوع بعد أن تذكر شرب ماء النيل، واستجاب لفطرته البشرية ومعها أيضًا زيارة ابنته الوحيدة التي هجرتهم، أما عن الأم فهي تملك صالون تصفيف الشعر تزين النساء اللواتي انغلق عليهم الزمن في

محاولة لإنقاذ بشرتهن وخصلاتهن ولا تعلم شيئًا عن بلد نامٍ فقير، ولأكن صادقًا أنا متوجس من هذه الزيارة كأنه امتحان الثانوية العامة؛ لم نتقابل من قبل كانت محادثاتنا هاتفية وأتكلم إنجليزية متوعكة مصابة بالحمى، لا تفهم منها لغة الجسد كإنسان آلي حديث الصنع، يا ترى كيف ستكون مشاعرهم؟ هل سينظرون إلى شكلي ومظهري أم لقلبي؟ هل سيكون لعقولهم أفق أم أن أرواحهم باطشة؟

في هذا البلد المتواضع شيء أقل حجمًا من النملة قد يسعد إنسانًا لكن رغم رخص دمائه إلا أن انفعاله قويًّا كمصباح نور سيارة في طريق كاحل، هكذا يعيش الشباب كالبالون يترنح بفعل جزيئات الهواء المزدحمة بالأتربة، كانت الأخبار أعلنت عن مباراة بين ناديي الأهلي والزمالك، هذه المباراة التي لطالما يتأملها كل ساعٍ لتضييع الوقت، إعلانات في المقاهي وعروض على المشروبات، زجاجات المشروبات الغازية بنصف الثمن وحجز كراسي قبلها بيومين وكأنه كرسي لعيادة طبيب خريت، الأحاديث كلها عن نجم أسوان الذهبي "شيكابالا" ماذا سيفعل وآخرون أغلبية يناصرون الفريق المنافس الذي يرتدي اللون أحمر في أحمر وينقصهم وضع أحمر شفاه، حتى الكلام على غير المباراة قد صنف إثمًا كبيرًا لديهم، أهلاوي أو زملكاوي، تقال لآلاف المرات وقريبًا ميكروفونات تجوب لتستعلم الاختيار هنا اثنين إن أضفت ثالثًا قد تشل العقول، بشرح بسيط إنك مجبر، كأنها كلمة في لغة ليس لها بديل

وقاعدة فلسفية نتيجتها حتمية، التطرف المغلوب على أمره ببياضه بمقدوره البحيح، لكنه يعول ويشجع بالوفاء، كل هذا شيء وأن أجد زوجتي تريد متابعة المباراة، الذهول رغرغ نظرتي علمًا أنني أحفظ زوجتي التي يربطها بكرة القدم "لا شيء" ربما رياضية ولها بطولات في السباحة لكن مع وصول الأمر لمباراة للفريقين محليين فالأمر هنا ينشب حريقًا في علاقتنا يجعلني أتساءل هل تزوجت امرأة أجنبية أم صعيدية من سوهاج؟ أعلامهم ترفرف في المتاجر ربما هو إعلان لجمهورية الفريقين وانقسام الدولة لنصفين، حيرة ربما على إقناعي بأن أجلس وألزم قرنية عيني بمتابعة هذه الكرة، استوديو تحليلي قبل المباراة بساعات ومراسلين في شتى أنحاء الجمهورية لنقل الحدث، وجمل مثل كابتن الغندور ما رأيك؟ هل يستطيع الزمالك التغلب على الأهلي اليوم؟ ونفس السؤال السخيف لمحلل انتهت علاقته بالرياضة ذو كرش يطول مترين ولحية مرتبة في بذلة دخل فيها بعد معاناة، وأخيرًا بدأ هذا اللقاء وجدت ميلا منكبة ترصد تحركات اللاعبين سألتها سؤالًا:

– منذ متى وأنت تتابعين كرة القدم؟

قالت ولهانة وفي يديها طبق لب:

– أنا مشجعة للكرة منذ أن كنت طفلة، لم أفتح جدلًا معها ودخلت غرفتي أستمع بعض الموسيقى، صراخ وفجر طبلة أذني بكلمة جووووول.

– ما الذي حدث؟

– الأهلي أحرز هدفًا.

– تبًّا لك وللكرة وللجلوس معك.

فتحت دولابي وارتديت ملابس ملائمة وجلست جالسًا في نادي رياضي أمام حمام السباحة وكوب عصير برتقال أرتشفه بتمعن، نباح هنا أيضًا متقطع، يسمونها هجمات وهو هدف كاد أن يحصل، جالسًا بنظري صوب السماء أسمع الكون الفسيح غير مهتم، انتهى هذا الصخب بتعادل الفريقين بعد انتهاء مباراة كانت أشبه بحلبة المصارعة فقد شاهدت اللاعبين يعتدون بالضرب على بعضهم بعد اللقاء، حمدًا لله أنهم لم يستخدموا الأسلحة النارية أو قذائف الهاون.

"الحب المظلم"

ما هو الحب؟ فكروا دقيقة ثم أجيبوا ربما تكون فكرتكم عنه مختلفة، الإجابة الحب هو شعور بالانجذاب بين طرفين أي أنها مشاعر عاطفية نتيجة ميول الإنسان وليس فقط الحب عاطفة، بل إنها كلمة تشمل الود والتقدير إلى هذا الحد والأمر مفهوم لكن حينما ينقلب الحب إلى مرض نفسي تعلق زائد بين طرفين فيتحول الحب إلى وسواس قهري، تكون النتيجة كجرح ينزف دمًا بلا شفاء، كيف يتحول أطهر شيء على

الكوكب إلى حرب ومقاومة النفس وليس سكونه واستقراره، الأنباء الآن في الجرائد والصحف عن شاب قتل شابة تحت ذريعة الحب تقول العناوين أن الفتاة استغلت حب الشاب لها وجعلته ينفق عليها مثل الذهاب للتنزه معها وشراء الهدايا وتعلق الشاب بها إلى حد الجنون وذاب فيها كقطع السكر، لكنها بعد عدة سنوات تركته لأسباب غير معلومة، حاول الشاب الهزيل من إرهاق الحب الرجوع لها حتى أنه هددها إن لم ترجع سيقتلها إلا أنها لم تلتفت، وانتهى الأمر بعدة طعنات في أنحاء جسدها على يد هذا المغمور في وسط الشارع، الشرطة ألقت القبض عليه واعترف بفعلته بكل هدوء، بعض الأقاويل رجحت أن الشاب يعاني من مشكلة نفسية وأخرى تقول أنه في كامل صحته العقلية، وما أثار دهشتي أن عائلة الضحية تظهر في التلفاز أكثر من الفنانين والمشاهير للحديث عن ابنتهم المقتولة غير مكترثين لدماء ابنتهم التي لم تجف، أبوها رجل يعاني من عدم وجود قنوات دمعية، بعد يوم من الحادث ظهر بسحنته يحاول الظهور متأثرًا متحايلًا على الدموع، وأمها قالت في أحد اللقاءات المتلفزة أنها لا تود الحزن كثيرًا وكأن ابنتها كانت دجاجة، على جانب موازٍ يتقابل بعض المدافعين عن القاتل، نظموا مظاهرات للمطالبة بتخفيف الحكم! هؤلاء الحمقى لا أعرف سر دفاعهم المستميت عن القاتل، لكن ما أفكر به أنهم مجانين يستحقون الدخول في مصحة نفسية لتبريرهم القتل قائلين أنها استغلت الشاب

المسكين، وجعلته ينفق عليها إنه طالب متفوق دراسيًّا، قد ارتكب خطأ وأن الله غفور رحيم، نعم إنه غفور لكنه أمرنا بالقصاص أيها المخنثون ذهنيًّا واعلموا لا يوجد مسكين يقتل، المسكين. الزمن ربما تغير أو أن البشر صاروا كالحيوانات لقد صار الشر غاية وليس وسيلة، لقد ماتت رحمة الله في القلوب أظن أنه يكفي 7 مليارات نسمة وكفى إنجاب المزيد، ألا يوجد أحد يفكر مثلي لقد صرنا عبئًا على بعضنا وصرنا أرقامًا وليس أرواحًا، دماؤنا لم تعد محرمة بل نكثت وفنت حرمتها.

***

في يوم ثلاثاء الساعة الثامنة صباحًا رن جرس البيت فأيقظنا، رحت مخمولًا كأن وزني زاد أطنانًا، وجدت رجلًا وامرأة إنهما والدا زوجتي عجوزان بشعر أبيض وعيون ملونة يثقلهم العمر بذخائر العطاء، كان الرجل قصير القامة في قميص مورد وشورت قصير، يسند على عصا استحى قول عليها عكاز والمرأة كانت تردي فستانًا لا يليق بسنها صاحوا: good morning، بلكنة بريطانية وابتسامة يملؤها السرور، تعانقنا ثم ظهرت ميلا وهي تبكي مرتمية على أبيها وأمها كالمجنونة في قبلات حارة ومشاعر فائضة كمحصول القطن، بعد التسمر أمام الباب لحظة عاطفية أجحفتني، جلسنا نشرب بعض الشاي لكن أباها رفض قائلًا إن الطبيب منعهما من المنبهات.

– أبي ألبرت من عشاق مصر ألا يشبه المصريين يا ناصر؟

تطلعت صوب وجهه محاولًا إيجاد ملمح يظهر ذلك لكني فشلت فعالجت ذلك بالنفاق قائلًا:

– حدثته بالإنجليزية الضعيفة نعم، عمي بالفعل يشبهنا كثيرًا عندما رأيتها على الباب حسبته بواب العمارة.

نظرت لي بارتباك تهتز جسدها قائلة: هو يقصد أنك تشبه المصريين القدماء فالذين يعملون في هذه المهن يكونون من صعيد مصر.

– ضحك بصوت عالٍ قائلًا: أشكرك أشكرك.

عرفت من طريقة كلامه أنني سأواجه مشكلة وعليَّ أخذ دورات تدريبية في النفاق للتعامل معه.

قالت ميلا: أمي إنها تريد تعلم الغوص وتريدك مساعدتها في هذا الأمر.

– تحت أمرها.

ميلا حكت أنك خبير في الغوص ولك مشاركات في بطولات عديدة وخرجت أيضًا أبطالًا.

– بالفعل منذ افتتاحنا الأكاديمية ونحن والحمد لله متفوقون في هذا المجال لا تقلقي سوف تصبحين مثل سمكة بعد أول دورتين، أنا مسرور بتواجدكم وسعيد وفرِحٌ...

– ميلا: احم احم.

– أهلا وسهلا.

قال والدها بعد خلع شرابه النتن: نحن لن نطيل عليكم، أسبوع أو عشرة أيام كم سيكلفنا هذا؟

قلت: ما شاء الله والدك يمتلك حس فكاهة عالٍ!

– لا، أنا لا أمزح.

– وهل أنتم في فندق أنتم ضيوفنا، ثم أنت عشرتنا وأكلت معنا خبزًا وملحًا، عيب عليك.

قالت زوجته: نحن لا نريد أن نثقل عليكم.

أردفت ميلا: أنتم تثقلون عندما تقولون هذا، أبي لدي ملابس سترتاح فيها جدا، تعال لأريك إياها.

– حسنًا لنرى ذلك، ارتحت بعد رؤية وجهها لا أستطيع وصف الأمر، لكنه قبول روحي ربما؛ لأنها تشبه ميلا زوجتي أم أن الله يزرع في قلوبنا أمرًا لا ندركه على أية حال، أتمنى استمرار هذا.

تعودت حلاقة شعري عندما كنت أعمل في سيناء سباحًا فوجود صالون للحلاقة كوجود قطعة من نيزك، بينما أزيل البعض لاحظت شعرة بيضاء لم أصادف أن وجدت هذا العنصر الدخيل فأنا لم أتجاوز الثلاثين بعد، لم أندهش فأبي كان شعره أبيض مثل تصفيفات شعر الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وأثناء متابعتي راحت أفكاري تتبعثر بين جملتين هل أصبغ شعري أم لا؟ حتى ارتكبت خطأ أنزلت كتلة من الشعر مكونًا حفرة عميقة هنا احتشد الغضب مندفعًا فرميت ماكينة الحلاقة في الحوض كاسرًا إياها مع التلفظ بعبارات قاسية، انتبه كل من في البيت، وجدت والد ميلا بلا عكاز هذه المرة محملقًا بقوة قائلًا: هل أنت بخير؟

حاولت لملمة الأمر مجيبًا: لا توجد مشكلة، أنا فقط أسقطت الماكينة.

فانصرف وكأن شيئًا لم يحدث، أعلم أن هذا الرجل إن أمسك شيئًا يخيل إليه أن زوج ابنته يعاني من أمر ما أو حلم حتى أنني أتنفس خارج سرب متطلباته قد يأخذ زوجتي ويرجع إلى بلده في أقرب طائرة، هكذا هم الغرب يسعون لتطبيق الأخلاق والفضيلة والمثالية المطلقة على غيرهم فإن وجدت فيهم آفة نكروها واستنكروها مبررين.

انطلاق السهم يحتاج إلى دفعه وبات قوسي منهزما من كثرة الانطلاق، ففي المثابرة على الدأب خطط ترسم ومنهج، وفي المنهج ثنايا وصفحات ممتلئة، لقد عانيت كغيري مرابطًا عازمًا نتيجة هذا خير يهطل من السماء، سحب كثيفة تحيط بي لكن في النهاية لا بد من تفوق يهزم السابق فقد حصلت على عرض من اتحاد الغواصين بالعمل مديرًا لأحد الفعاليات سأحصل من خلالها على مبلغ ليس بالقليل غير أن اسمي سيصل لمئات الغواصين حول العالم حيث مشاركة سباحين مهرة من أطراف العالم إلى عمقها شرقًا وغربًا، الأمر يشغلني منذ أن تلقيت مكالمة من رجل يدعى هشام سلام وهو عضوٌ في هذا الاتحاد (لقد اخترناك لتكون أحد المنظمين في الفاعلية وقد تكون المسؤول الأول) ابتسمت لكن الإنارة أحدثت تشوشًا، أنا خائف، المسؤولية كبيرة كيف سيصير الأمر؟ هل سأنجح أم سألطم على رأسي؟ قائلًا:

– الملاحة الملاحة وحبيبتي ملوا الطراحة مثل محمود عبد العزيز في فيلم العار.

الأمر أعجب أسرة زوجتي أشعرهم أنني صرت مسؤولًا كبيرًا وأن زوج ابنتهما سيصبح مليونيرًا يغدق عليهم بالمال ويهديهم السيارات الفارهة، وأنا أضحك على خيبتي أفكر كيف سأدير الأمر؟ سأخرج حقنة التفاؤل وأحقنها في الوريد، أتمنى أن أتحول محمود الفقي وأطلق

تصريحات عن جمال الحياة وروعتها حتى لا أقتل متشائمًا قائلين مات من استنشاق جرعة من الإحباط الزائدة.

ما معنى رجل البيت كرجل شرقي أغدق حياته في إيضاح أنه على قدر من المسؤولية؟ فالمعنى أنك ماكينة صرافة تضغط على جيبك لإخراج المال، وإن كنت أعزب فقد تتمتع ببعض الرفاهية، فالذي يضغط هنا هو أنت، أي أن الأمر اختياري، لكن أريدك يا رجل أن تتخيل أنك محاط بمجموعة من رجال الشرطة وأمر ضابط منهم بإخراج نقودك وإلا سوف سيتم نفيك خارج البلاد، هكذا حالك إن لم تخرج المال في البيت سيتحول لعراك ولم تطق الجلوس وتهرب بعيدًا للنسيان، زوجتي مع مرور الوقت اكتشفت أنها تعاني من حساسية الأموال، فاقتناء البعض منها يسبب لها أعراض جانبية جسدية ونفسية وهنا يجب أن تتدخل.

في محل السوبر ماركت وهو سوق كبير مكيف يثلج البدن وإضاءة ضخمة تلمع المنتجات وكأنها فواكه من الجنة، سحبت ميلا عربة التسوق وراحت مع أمها قائلتين:

– إنهما تريدان التسوق، اتركونا نحن وسوف نتولى كل شيء.

ثم جلست أنا وأبوها ألبرت في مكان مخصص للجلوس ننتظر. هذا الرجل ثرثار بطريقة غير عادية، كان يحكي لي عن أصول أسرته منذ

الجد السابع انتقالًا إلى نزواته في شبابه ثم إلى رحلة علاج قدمه اليسرى التي عطلته عن مواصلة أن يكون لعوبًا.

قبل أن أنجب ابنتي كنت أطوف على النساء بواقي واحد.

– ماذا؟!

– أقصد واقي الإنجاب.

– ما هذا القرف يا عمي لقد خجلت لك حقا!

– الحياة في أوربا تختلف عن هنا، من الممكن أن تتمتع بحياتك قليلا حتى وإن كنت متزوجا لكن لا تكشف ذلك.

– لم لا؟

لأن الأمر ببساطة صعب الاكتشاف كيف لها أن تعلم وأنا أخرج مع أصدقائي الرجال هي أيضا صديقة لهم وتعرف المعلوم والمجهول عن تنزهاتنا.

وهنا جفت عروقي ذهولا: هذا الرجل يهوى الرجال أيضا، يا لها من عائلة! أيًا كان فهم لا يهمونني ميلا أولا وأخيرا.

– أنت لك في الخشن، أليس كذلك؟

ابتسم بخبث، وقبل أن ينطق تدخل في حديثنا ظهور الاثنتين بالعربة التي كانت محملة بكافة البضائع أحضرت حلوى وأسماك وألبان وكانت المنتجات تصل لطول كتفي.

– ما شاء الله يبدو أنك نسيتِ شيئًا؟

– ماذا؟

– العمال في السوبر ماركت يا حبيبتي كان عليكِ شراؤهم أيضًا.

ركزت في عيني بعيونها الملونة قائلة: أنت قلت لي اشترى ما تحتاجينه.

– ما تحتاجينه وليس كل ما يحتاج المحتاجون.

– اثبت يجب عليك يا رجل أن تكن مثل البهلوان لا تخفي ابتسامتك مهما حدث سينقلب القدر عليك في أي لحظة إذا شمت رائحة تمرد.

قال أبوها: سوف أوقف سيارة أجرة.

– لا نحتاج ربما تكفي حقيبة العربة.

قالت الأم: اممم أتعتقد أن...

– نعم، نعم هيا بنا وكل هذا وأنا أفكر بكم الفاتورة أظن أنها قد أضاعت إيراد الأكاديمية هذا الشهر.

بعد التوسل لحشر الحاجات في الصندوق لم يفِ بالغرض، كان كلام أمها صحيحًا لقد اضطررنا لأخذ عربة أخرى، نصيحة لا تترك زوجتك تتسوق إلا وأنت ملتصق بحذائها.

"بلا عنوان"

هل اقترفنا خطأً حينما أقبلنا على الدنيا بثقلنا وربوع أحلامنا أم أنه من الحكمة أن نكون كذلك؟ فمثل الكثيرين الذين يعيشون في حلقة لا نهائية يرقصون دون النظر للوراء، أيامهم متشابهة ومتشابكة مثل كومة من الشعر الخشن، تراودنا الهواجس خيرًا منها والشر أولها وآخرها، يمن علينا القدر بتحذيرات قف، استيقظ، اصنع، افعل، لكننا قابعين في سبات كحيوان الكسلان، أتظنون أننا نعيش؟ لا ففي الحالتين نحن بين عالمين موقعين عهدا أن نمثل مشاهدنا في سلسلة طويلة تفتقر للنهاية، نعم نحن كذلك وإنكار الأمر يجعلنا مهرجين سذج علينا إتقان دورنا بحرفية، خائفين من الحزن والصعاب، مستشرقين كالعرائس في الزفاف، منتبهين لدقات قلوبنا، رافضين، متأنين كمثل أسد ينتظر فريسته، من منا يشغل باله بأقوال الآخرين عنه غير الذي يعتقد أن كلامهم سيجعله يرتمي بعيدًا عن هذه الدائرة فلخص حالك في جملة واحدة، كن في الدنيا والآخرة تكن أبدًا بلا نهاية.

– ماذا تفعل الساعة ٣ فجرا يوميًّا؟ أترك لكم الإجابة.

لكن بالنسبة لي كان يجب عليَّ النزول الساعة الثالثة فجرًا للسباحة مع والدة ميلا، هذه المرأة تعاني من الخرف أصرت على هذا الموعد كونها تحب السباحة في أوقات متأخرة، بعد شد وجذب أخذتها رغم غلق النادي في ذلك الوقت ثم رحت لاستئذان الحارس يعطيني مفتاح حمام السباحة المحصن بأسوار أعلى من سور الصين العظيم.

– المعذرة.

انتفض من على كرسيه كان نائمًا، أستاذ ناصر ما الذي أتى بك الآن؟ ليس ميعادك ثم خلع نظارته التي يرى بها بصعوبة ثم نظر نحو حماتي آآآآآه قالها وهو يغمز قائلًا:

– دائمًا تحب الأجانب والسيدة ميلا تعلم بهذا الأمر؟

– هذه أمها.

جَحَظَتْ عينُه في اتساع.

– ماذا؟ لا حول ولا قوة إلا بالله هذا ذنب كبير عند الخالق يا أستاذ ناصر.

"ذنب ماذا أيها الحقير؟ إنها تريد السباحة أعطني المفتاح.

مد يده رافعًا السبابة: أحذرك.

شددت المفتاح بقوة قائلًا: هات يا غبي أتظن نفسك شيخ النادي؟

– لا، لكن واجب عليَّ النصيحة.

أنرت عواميد الحمام فانعكس مكونًا بقعًا بيضاء وأظهر العمق سامحا لنا برؤية البلاط الأرضي كون هذا الحمام سبعة أمتار تقريبًا.

– حسنًا سوف تخلعين ملابسك هنا وأنا هنا إن احتجت شيئًا.

– ستطيع السباحة لكني أريد تعلم الغوص.

قلت في نفخ: حسنًا، دقائق وسأكون جاهزًا.

ارتديت ملابسي وبدأنا في النزول للعمق، كانت المياه باردة والجو غائم ملبش، تعمقنا أكثر وقلت وبدأت بإرسال إشارات كنت قد علمتها قبل النزول على كيفية التحرك.

كانت تتشبث بشدة كالطفلة ترفض الابتعاد، كان يجب أن أرى كيف تعوم تحت الماء لكنها مثل صغير الكنغر ينقصها الدخول في جيبي.

وكسباح ماهر أستطيع تحديد من يجيد السباحة ومن لا يستطيع هذا المرأة ماهرة أكثر مني وفجأة شعرت أنها تقترب من رأسي وكأنها تريد أن تقبلني، قلت لنفسي ربما أخطأت لكنها عاودت الكرة مبتسمة ظنًّا أنني أفهم مقصدها. فنهرتها وخرجت غاضبًا.

– أسرعت ورائي.

– ناصر انتظر.

– لا أريد سماع أي شيء ارجعي أنت والعجوز بلدكم وميلا لي فهمتهما أنها اختارتني وسأظل معها دائمًا.

قالت بصوت عالٍ وأنا أجمع أغراضي: من تظن نفسك؟

بعد هذه الجملة كنت أود إغراقها في المياه أو حشر رأسها في بالوعة الحمام لكن تمالكت: أنا زوج ابنتك اغربي عن وجهي.

صرخت وأنا أبتعد: أنا إميلي، أنا إميلي لا أحد يرفضني أفهمت؟ ثم أخذت تضحك لا أعلم على ماذا، ربما على غريزتها أم خيبتها الثقيلة.

كانت ميلا تطهو الطعام كعادتها بعد أن تعلمت القليل فيما مضى في حقبة عش الزوجية فتحت باب الثلاجة أشرب الماء وأثناء الرشفة الأولى قالت: أتعلم أن هناك خلافات؟

انحشر الماء في فمي قبل البلع فقلت مخضوضًا: خلافات ماذا؟

كانت تقلب شيئًا لم تلتفت إليه فتركته والتفتت لي، بين أبي وأمي هناك خلافات.

– حمدت الله فقد ظننت أن هذه الجملة تعود علينا.

– وما السر؟

– أبي وأمي علاقتهم غير متوافقة منذ أربع سنوات تقريبًا.

أردفت: ولماذا؟

– خلفيات في العلاقة.

– آآآه هكذا.

– هكذا ماذا؟

– لا، لا شيء.

– لقد أصاب التهاب البروستاتا أبي في سن مبكر ومن يومها وهم غير متوافقين.

قلت بغرور ملصقا كتفي على الحائط: ولماذا لا ينفصلان؟

– أتمزح؟ إنهم لا يستطيعان فعل شيء بدون بعضهما كتوأم ملتصق، إنهما لا يبرحان مهامًا إلا ويكونان مشتركين.

– هذه مشكلة حقا يا عزيزتي لكن العلاج قد تطور لمثل هذه الحالات، لقد سافروا جميع دول أوروبا عند أمهر الأطباء ولا توجد نتيجة.

– هل تعتقدين حقًّا أن أمك يجب أن تفعل ذلك؟

– بالطبع هذا حقها.

– نعم لكنها في الخمسين وفي تلك الحالة هناك أمور أخرى في الحياة قد تعوضها وتتمتع بها.

نفثت في الهواء مستاءة ثم قالت: لا أعلم لماذا تصر أمي على التفكير في هذا الأمر، أبي حقًّا لا يهمه ويحبها كثيرًا، إنه لا يرفض لها طلبًا أو غاية ويخاف عليها ويعتني بيها باقتدار.

رفعت الزجاجة وارتشفت القليل ثم قلت بعد أن عدل الماء المثلج مزاجي: الحل هو التعايش يجب أن يتعايشا.

– أبي متعايش أما هي فلا.

– نعم، دون أن تقولي.

نظرت لي: لماذا تقول هذا؟ هل حصل أمر ما؟ هل حكى لك أبي شيئًا؟

– لم يحدث إنه رجل ودود وكلامه قليل.

ابتسمت: أبي كلامه قليل أنت تغبشني!

– أكملي الطهي، خمص الجوع بطني إذا لم تنتهِ قبل صلاة العصر سألتهمك.

"الراحلون لا ينسون"

المتناحرون على الراحة هم دائمًا الفائزون يجدون ما يبسط مضجعهم المهترئ، صاعدين ببالهم المبارك سلم الخلد المحفوظ إنهم الغائبون المتنقلون من الوهم المقدس إلى القداسة المذهبية، أتذكرك يا أبي ولم تغب برهة عن بالي، تيقنت أنك في أحسن حال الآن فما عايشته صعب المداولة، لقد ربيتني على الخلق المثالية وما وجهته يجعلني أشد شرًّا من الشيطان، أتذكر حينما كنت صغيرًا أستقر بين ذراعيك وأبكي وتمسح دمعي بقبلة على الرأس ثم أهدأ مستسلمًا لطيبتك الوافرة، أتذكر حينما اشتريت لي دراجة صغيرة بها صندوق وطلبت مني شراء شيء من السوق وألف شارعين آتي ببعض البلح المتساقط من النخل، وتضحك علي لأنك لم تعطِ لي مالًا قائلًا أنني لا أهزم، أتمنى دقيقة واحدة من تلك ولو حتى سنين من عمري مقابلها، ويا صديقي العزيز لقد صار مصدر رزقنا هو مصدر همنا لقد سئمت كل شيء وضاقت النفس حتى فصمها، وتباينت الرثية في عظامي، أنت الآن حر تتنقل بين الأرجاء بروحك الحسنة، جمعتنا أيام لا تعوض، أنت لست غائبًا ولكني أشعر بك حينما أهم للعمل وأقرأ لك الفاتحة أنت وأبي بعد كل صلاة يا له من أمر لا يعبر بحروف، إنها حكمة الله في الموت رحمة الله لأولئك القريبين من كرسيه كملائكة يجوبون الأرض وتنتهي رحلتهم في الملكوت.

اقتربت من ميلا سألتها سؤالًا بتوجس كنا في وقت العصر من اليوم أملت أن يكون مناسبًا:

– ماذا لو لم نتقابل يا حبيبتي؟ سؤال عادي صحيح؟

تركت المشط الذي كانت تسرح به شعرها وحدقت ببوادر تمرد ونطقت بعبارات بريطانية لوغاريتمية ثم ناشدتها الترجمة.

قالت إنني غبي وهذا السؤال معناه أنني لم أعد أرغب بها.

ربما كان عليَّ قولها بلغة أخرى أو بلغة الإشارة، كيف تترجم المرأة كلام الرجل بكافة اللغات الحية منها والمنقرضة؟ كيف لديهم هذا الشعور المتخبط المتشعس تجاه ما يحوم حولهن؟

– حبيبتي إنه مجرد سؤال.

– لا، هناك شيء لا تود إخباري به ما معنى ماذا لو لم نتقابل؟ هل تخطط لشيء ما؟ ثم انهالت بالبكاء تخبطت في تلك اللحظة وتساءلت هل تعاني من خلل ما؟ هل هي هرمونات النساء كما يقولون؟ وبعدما اقتربت منها كانت يداها باردتان.

– ناصر قل لي بصراحة لماذا تقول هذا؟

– أقسم لك أنه مجرد سؤال، يا له من سؤال حقير أحمق، تبًّا له يا لي من مغفل أعمى.

ضحكت والدموع تنزل على خديها ثم قالت: وحمار.

– حمار حمار على الأقل لديه وعي ويفهم صاحبه.

ابتعدت قليلًا متصلبة: أتقصد أنني لا أفهم؟

– أنا ذاهب إلى البلكونة أجلس هناك، لقد أصبحت عصبية جدًّا.

بعد غياب النهار كان لا بد من بزوغه، قصائد المجد كانت يجب أن تنقح، وزهرة اللوتس كانت يجب أن تسقى وتشقق، والنيل يعلو بمائة مناشدًا السد دعني أفيض لأبارك أبنائي بخيري والأهرامات تبيض من جديد هازمه المزيفين معلنة أن الحضارة ولدت من ترابها، وأنها ليست حجارة بل تاريخ دائم، ومن سيناء أرض الإله تحفظ خطايا النور، نور شباب مصر الثائر كانت انطلاقة شرارة ثورة ألهبت وازع بعض الشباب في أذن الأحياء احتجاجات يدبرون لها.

يوم عيد الشرطة، الساعة الواحدة ظهرًا لافتات بيضاء من القماش عليها عبارة "الحرية للمعتقلين" وأخرى "أين الحرية؟" باللون الأحمر وكأنها بلون الدماء وآخرون يكتفون بالهتاف تباعًا مع رجل على كتف آخر يصرخ بشعارات تطالب التغيير، يرتدي شال "الخطة" المارة ينظرون

أطفالًا ونساء ورجالًا وشيوخًا، من شرفتهم يتساءلون، منهم من ينضم ومنهم من لا يهتم من الشرفات والمتاجر والأبواب والطير يحلق بغناء "هيا نصنع ونثور ونغير وطني الصبور".

أوقفت أحدهم قائلًا: لماذا هذه المسيرة؟

زام قائلا: الشرطة الحقيرة قد قتلت شابًّا في الإسكندرية ولن نسكت، قسمًا بعزة جلالة الله لن نسكت قالها وهو يرفع يده بقبضة وكأنه ملاكم ثم رحل دون أن يمهلني فرصة لمعرفة سبب قتل هذا الشاب.

بعد ابتعاد المسيرة رجعت البيت.

وجدت ميلا وأبويها يتابعون التلفاز.

قالت ميلا: أرأيت الذي حدث؟

– نعم مظاهرات عدة.

– لا، هناك شاب يُدعى خالد سعيد قد قتل في الإسكندرية على يد أمناء للشرطة.

أردف أبوها: ما هذا التوحش؟ لا يحق للأمن أن يعتدي على أحد مهما كان.

قلت وأنا أخلع الجاكت: يبدو أنك نسيت مصر يا حماي إنها أم الدنيا وهذا وراد ربما فعل شيئًا لا يغتفر.

قالت والدتها: يقولون إنه كان يتعاطى المخدرات.

غضب الوالد أكثر قائلًا: حتى وإن كان يتاجر هذا إجرام كيف هذا؟

– هدئ من روعك يا عم ألبرت صحتك، سوف أعد لك الشاي.

قالت ميلا: يقولون أنهم سوف ينظمون لمظاهرات جديدة.

فقلت: وحتى وإن تظاهروا ألف عام أتظنين أن الوضع سيتغير؟

قالت الوالدة: ولِم لا يا ناصر؟ العالم كله يتغير وفي تونس حصل تغير، كل شيء قابل للحدوث.

نظرت لها بقرف بعد ما حدث بيننا لكن لم يلحظ أحد نظرتي: ماذا حدث هناك؟

تابعت: لقد قاموا بثورة وخلعوا الرئيس مثل "ضرس العقل".

– أتظنين أنه حل؟ سوف تدخل تونس بعدها دوامة لا خروج منها، الشعوب العربية شعوب فقيرة بها جهل فكري وفساد، المشكلة قبل أن تكمن في النظام تكون في الشعب.

تدخلت ميلا قائلة: أتظن أن من يحتج جاهل ومن يطالب بحقه غبي؟

– بالنسبة لي نعم يجب أن يزيلوا فسادهم أولًا مثلًا على ذلك، في مصر تجد الأب حريصًا على أن يدخل ولده كلية الشرطة أو الحربية ليكون لابنه نفوذ وسلطة، والآخر حينما يلتحق ابنه بالجيش يهرع ليجد "واسطة" لنقله في منطقة أفضل.

– لكن كل هذا بسبب فساد "الكبار".

– وفساد الشعوب أيضًا، أنا سأعد الشاي.

الحرارة أخذت في الانخفاض، درجات الطقس تبددت بغرابة عما كنا نعرف حينما يحل الصيف، ما علينا يكون خفيفًا وفي الشتاء يكتسي الجسد بالجلود والأقطان المحشوة، هذان الفصلان يحددان تتابع الفصول تقريبًا، جرائد تكتب كل يوم أن هناك ما يعرف بالاحتباس الحراري وهذا سيؤثر على طبيعة الكائنات الحية والنباتات وكل ذرة على الكوكب، ولكن صدقًا أنا مرتاح من هذه الأخبار فهذا العالم قاسٍ ومميت يستحق النزيف، كنت في ذلك الوقت في البلكونة أقرأ مجلة عن عالم السباحة لم تخل أيضًا من هذه الإحداثيات عن الطقس فسرحت بخيالي وقلت إن اكتسى العالم بالماء ستكون وظيفتي مهمة للغاية بل لا وجود لغيرها على ما أظن، الحكومات سوف تحتاج إلى سباحين لإنقاذ الأوراق المهمة والآثار والأشياء الثمينة التي لا تقدر بثمن

وسوف أحدد سعرًا غاليًا وسوف أصير ثريًّا، لكني أخشى على الأموال من البلل، ما هذه الحماقة يا ناصر عن ماذا تتحدث؟

تركت المجلة التي جعلتني مجنونًا و...

– صباح الخير، إنه والد ميلا.

– صباح الخير كيف حالك يا عمي؟

– لِم تقف وحدك هكذا؟ ادخل واجلس معنا.

– لقد وجدت بعض الهواء البارد قلت أخرج وأستنشق البعض.

– دنا وكأنه مجهز لقول شيء ما.. هناك خبر سار أريد أن أتحدث معك فيه. ميلا حامل!!!!

تمت